

إدارة النفس في زمن الحرب



دار المعارف الإسلامية الثقافية

إدارة النفس في زمن الحرب



دار المعارف الإسلامية الثقافية

إدارة النفس في زمن الحرب	الكتاب:
مركز المعارف للتأليف والتحقيق	إعداد:
دار المعارف الإسلامية الثقافية	إصدار:
الطبعة الأولى: 2026 م - 1448 هـ	

إدارة النفس في زمن الحرب



دار المقارق الإسلامية الثقافية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

8	مقدمة.....
12	السؤال الأول: لماذا الحرب؟ وما هي فلسفة الصراع في العالم ونظام الخلق؟.....
12	شرح السؤال:
12	الجواب:
12	الاختيار الخطير؛ ثمن كمال الإنسان
13	قانون الدفع؛ توازن القوى لبقاء الحق.....
15	الصدمة الكهربائية للحرب؛ يقظة من مستنقع الفتور
16	التمحيص؛ غربة المدّعين عن الصادقين
17	في عملية الصعود؛ النظر إلى «الغاية» لا إلى «الدمار»
19	الخلاصة
20	السؤال الثاني: كيف يمكن ألا نخاف ونبقى متفائلين؟ كيف يمكن أن نحافظ على دافعيتنا في هذا المسار الطويل؟ ...
20	شرح السؤال:
20	الجواب:
20	إدارة المدخلات؛ الحمية الإخبارية ومرجعية التحليل
22	تغيير محور القلق؛ من «الذات» إلى «جبهة الحق»
23	إدارة العاطفة؛ ربح الصفقة والأثر المضاعف
24	إبطال خدعة الزمن؛ ما هو التكاليف «الآن»؟.....
25	ثلاثة مبادئ ذهبيّة.....
28	الخلاصة

29	السؤال الثالث: ما هي طرق زيادة الصبر والثبات؟
29	شرح السؤال:
29	الجواب:
29	إعادة تعريف الصبر: الصبر يعني المقاومة
30	قبول قانون «الكَبَد» (الألم الذاتي للعالم)
31	معادلة النصر = الصبر + التقوى
32	مقارنة التألم
33	خمسة حلول عملية لمنع الانهيار النفسي
37	الخلاصة
38	السؤال الرابع: العودة إلى الظروف الطبيعية، أم استمرار هذا الوضع حتى الظهور؟
38	شرح السؤال:
38	الجواب:
38	تصحيح منطق اللذة
39	تغيير موقع الاحتياج (نحن الغرقى لا المنقذين)
40	سلوك طريق الحب
41	أربعة حلول عملية لتقوية الصدق في قولنا «العجل»
43	الخلاصة
44	السؤال الخامس: ما هو منطق ترجيح «تكلفة المقاومة» على «تكلفة المساومة»؟
44	شرح السؤال:
44	الجواب:
44	المنطق العقلي: «شهية العدو التي لا تشبع»
46	المنطق القرآني: «الذلّ هو النتيجة الحتمية للاتكاء على الظالم»
47	فلسفة الثورة: «تغيير غاية الحركة»
48	الوحدة في ظلّ الولاية: «إغلاق طريق الاستقطاب»
50	الخلاصة
51	السؤال السادس: ما البرنامج المقترح لتقوية الروح المعنوية في زمن الحرب؟
51	شرح السؤال:
51	الجواب:
51	الطبقة الأولى: إحكام الأساس الذي يقوم عليه النصر (التقوى: أداء الواجبات + ترك المحرمات)

53	 الطبقة الثانية: تجديد العهد دائماً مع القائد الحقيقي
54	 الطبقة الثالثة: استخدام الأسلحة الميدانية: (الأذكار والتوسّلات)
54	 الطبقة الرابعة: تعزيز قواعد القوّة الجماعيّة
56	 الخلاصة
57	السؤال السابع: ما هوّتي بوصفي ناشطاً اجتماعياً، وما الواجبات الملقاة على عاتقي؟
57	 شرح السؤال:
57	 الجواب:
57	1. أن يكون «ريّياً»
58	2. أن يكون مثل «عمّار ومالك»
60	3. أن يكون «مبيّناً مخلصاً وعطوفاً»
61	4. أن يكون «رائداً في المواساة»
62	 الخلاصة
63	السؤال الثامن: ما الكتب التي ينبغي مطالعتها هذه الأيام؟
63	 شرح السؤال:
63	 الجواب:
63	1. القرآن الكريم
63	2. وصيّة الإمام الخميني وخطابات الإمام الخامنئي (قدّس سرّهما)
63	3. كتب العقائد - الأخلاق - البصيرة

مقدمة

حينما خلقنا الله سبحانه وتعالى في هذا العالم، أجرى علينا فيه سّنة التقلّب بين اللذات والآلام. فإنّ أدنى نظرة فاحصة نلقيناها على الحياة الإنسانية تُظهر لنا أنّ أولى خصائصها هي التقلّب الدائم بين اللذة والألم، فترى الإنسان تارةً تطرأ عليه حادثة توجب سروره وتورثه لذة، ثمّ سرعان ما تنزل به نازلةٌ فيتبدّل حاله على الفور إلى الألم، وكذلك تجده يبلغه خبر فيفرح، ثمّ يأتيه خبر آخر فيستحيل فرحه حزناً، أو العكس.

هذه الحقيقة تُعدّ من الحقائق الأشدّ وضوحاً في حياتنا الإنسانية في هذا العالم، وقد تعمّد الله تبارك وتعالى بحكمته أن يجعلنا رهناً لتعاقب الأحداث لغاية حكيمة هي: «إدارة النفس». فقد كان بمقدوره تعالى ألاّ يخلقنا في نشأةٍ تبدّل فيها الأحوال علينا، وكان بمقدوره أن يجعلنا في عالمٍ يدوم فيه سرورنا وتتّصل به أفراحنا، فيكون دارٌ لذّةٍ دائمةٍ، أو على العكس، إذ كان بوسعه أن يخلقنا في دارٍ ألمٍ دائمٍ، غير أنّ حكمته الإلهية اقتضت أن نكون في عالمٍ تنتقل فيه بين طربي اللذة والألم، بغية الوصول إلى هذا المبدأ التكامليّ؛ وهو مبدأ إدارة النفس في عالم التقلّب، قبل الرجوع إليه تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾¹.

ولكن أثناء هذا التقلّب الدائم بين اللذات والآلام، قد تعرض للإنسان أحداثٌ جسام تُفضي إلى صدمات حقيقية بالغة الأثر. توضيح ذلك أنّه: قد يمرّ الإنسان بموقفٍ يبعث في نفسه الفرح واللذة، كأن يتناول طعاماً لذيذاً فيلتذّ به، ثمّ بعد ذلك لا يلبث أن يجرح يده، فتتحوّل لذّته إلى حالةٍ من الألم، وهذا أمرٌ اعتياديّ، نعيش معه، ولا يؤثّر في أنفسنا بشكل واضح، ولذلك لا يسأل الإنسان نفسه: لم كنتُ ملتذّاً ثمّ تألمت؟ لأنّه معتاد على هذا التقلّب، وهو يدرك إدراكاً جازماً أنّ هذا الألم أو تلك اللذة سيزولان في غضون دقائق أو ساعات، ولذا لا يشغلان باله، لعلمه بعدم استيلائهما على نفسه. إلّا أنّ الأمر لا يجري دوماً على هذه الوتيرة في لذاتنا وآلامنا؛ إذ قد تمرّ بنا أحوالٌ نكابد فيها آلاماً غير اعتيادية، أو نعيش حالاتٍ من اللذة غير العادية، وحينئذٍ تظهر الصورة فارقةً، فيندفع الإنسان للتساؤل عن سرّ هذه اللذة أو منشأ هذا الألم.

إلّا أنّه في الغالب لا يتساءل عن اللذات الشديدة ولا يبحث عن أسبابها؛ لأنّ تركيبته النفسية وفطرته الإنسانية تنتظر اللذة بطبيعتها وتألّفها، فإذا وردت اللذات لم يستغرب ولم يسأل. ولذلك، فإذا طرأت على حياة الإنسان حادثةٌ إيجابيةٌ كبرى أورثته لذةً بالغةً، فإنّه يستشعر وقعها في نفسه، ولكن دون أن يدفعه ذلك إلى البحث والتساؤل عن أسبابها، ولا تخطر في ذهنه إشكالاتٌ تستدعي طلب الإجابة، بل يتلقّى تلك اللذة بقبولٍ وارتياحٍ كأنّه كان يترقبها وينتظرها. ولكن على النقيض من ذلك تماماً، عندما تنزل بالإنسان نازلةٌ من الألم الاستثنائي غير المعتاد، فإنّ جبلّته النفسية تأبأها وتفرّ منها بحسب طبعها، وتتفعل مباشرةً القوّة الغضبية التي أودعها الله تعالى في الإنسان، كما وتتأثر القوى الجسدية تأثراً غير اعتياديّ، وهذا الأمر يلقي بظلاله على النفس.

فإذا بلغت الشدّة والألم حدّاً فائقاً، أطلقت أجهزة النفس إشارات تحذيرٍ وإنذارٍ تدفع بالعقل قهراً نحو طرح

¹ سورة الأنبياء، الآية 35.

تساؤلاتٍ كبرى ملحّة؛ فإذا عجزت النفس عن إيجاد إجاباتٍ شافيةٍ عنها، أفضى بها الأمر إلى الاضطراب والاختلال النفسي، وهو ما صوّره القرآن الكريم بحالة «الزلزال» والاهتزاز الشديد - ﴿هَذَا الَّذِي ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾¹ - ثمّ إذا استحكمت هذه الحالة في النفس دون وجود إجاباتٍ يقينيةٍ تحلّ عقدها، أفضت إلى تحطّم بنیان النفس وهرمها كليًا. ومصاديق هذه الحالة تتجلى في الأزمات والمحن الكبرى؛ كعروض المرض الشديد، وفقد الأحبة والأعزة، ومصائب التهجير والنزوح، وخسارة المأوى والمسكن، والإصابة بالجراح البالغة؛ فهذه البلايا بأسرها تقود الإنسان إلى مواجهة أسئلةٍ مصيريةٍ تشكّل تحدّيًا وجوديًا؛ فإن وفق للإجابة الواعية عنها تمكّن من إدارة نفسه وضبطها، وإن عجز عن ذلك اضطربت نفسه اضطرابًا شديدًا قد تستردّ بعده عافيتها أو تؤوّل إلى الانهيار التام.

حينما نتحدّث عن بنیان النفس، ينبغي علينا أن نلتفت إلى أنّ النفس الإنسانية بمثابة الهرم المؤلّف من ثلاثة أركان أساسية هي:

الركن الأوّل: الجهاز الفكريّ والمعرفيّ؛ وهو مدار المعارف والرؤى والأفكار الحاكمة على ساحة الذهن، وهو المنطلق الأساس في توجيه النفس.

الركن الثاني: البعد الإحساسيّ والشعوريّ والعاطفيّ؛ وهو وعاء الميول والغرائز والانفعالات القلبية التي تملأ وجدان الإنسان.

الركن الثالث: بُعد الإرادة والعزم؛ وهو القوّة الباعثة على الحركة والداعية إلى الفعل وتحمل المسؤولية والتوجّه نحو العمل.

وبناءً على هذه الأركان، فإنّ الاضطراب النفسيّ والزلزال الذي يحيق بالإنسان ينقسم إلى أنماطٍ ثلاثة:

النمط الأوّل: الزلزال الفكريّ؛ وهو اختلالٌ يعترى الجهاز المعرفيّ، بحيث يعمى المرء عن فهم حقيقة ما يجري حوله من أحداث، وتتعلّط قدرته على تحليل الواقع وإدراكه، فيعيش تشنّجًا فكريًا يقوده إلى الانهيار.

النمط الثاني: الاضطراب الشعوريّ والقلبيّ؛ وهو اختلالٌ يطرأ على البعد الانفعاليّ، كأن يستحوذ الخوف على القلب مع عدم انسجام النفس معه، أو أن يخيم عليه الحزن والاكتئاب والقلق، وهذه كلّها اختلالاتٌ تمسّ الجهاز الشعوريّ للإنسان.

النمط الثالث: العجز الإراديّ؛ وهو ضربٌ من الاختلال غالبًا ما تقع الغفلة عنه؛ إذ قد تكون الرؤية الفكرية لدى الفرد في غاية الوضوح، ومشاعره خاليةً من الخوف والاضطراب والحزن، غير أنّه يجد نفسه مكبلاً تمامًا على المستوى العمليّ والتنفيذيّ؛ فقد خبت لديه جذوة الحركة، وفقد العزم والهمة، وانعدمت لديه الطاقة والدافعية لتحمل أدنى مسؤولية. وهذا العجز الإراديّ يمثّل خللاً فادحًا واضطرابًا حقيقيًا في بنية النفس، لا سيّما إذا أصاب من كان في ريعان شبابه وقوّته.

¹ سورة الأحزاب، الآية 33.

إذن، تتقوم النفس بثلاثة أركان أو أجهزة رئيسة: العقل، والقلب، والإرادة؛ فإذا عجزت هذه الأجهزة عن التعامل مع الحوادث الجسدية، وقع الانهيار النفسي لا محالة. ومآل هذا الانهيار: أن تغرق النفس في جهل مطبق على المستوى الفكري، وتغرق في خوف وحزن شديدين على مستوى القلب، وتغرق في انعدام العزم والإرادة على مستوى الفاعلية، وحينئذٍ تزول إنسانية الإنسان، فنغدو أمام شخص لا يبتغي من هذه الحياة إلا انقضاء الأيام ترقباً للموت، ولكنه في ميزان الحقيقة مَيّت من الناحية الإنسانية؛ إذ قوام حياة النفس الإنسانية بحياة هذه الأجهزة الثلاثة. فالإنسان الذي تعطل جهاز فكره لا يفقه شيئاً، والذي تعطل جهاز شعوره يظل غارقاً في بحار الحزن والخوف والقلق، والذي يتعطل جهازه الإرادي يُسلب القدرة على الفعل والمبادرة؛ ومثل هذا الإنسان يُعدّ ميّناً إنسانياً، ولكنه ينتظر الموت البدني فحسب. حاصل الكلام أنّ أزمّة الحروب تُعدّ من أشدّ الأزمّة التي يواجه فيها الإنسان هذا الاختلال والاضطراب، والزلزال النفسي، وهذا الموت الإنساني؛ إذ تجتمع في ظلّها الأبعاد الثلاثة لتزلزل كيان الإنسان. **أولاً:** عدم الفهم على المستوى المعرفي؛ فلا يدرك الإنسان غاية وجوده في هذا الموضع ولا حقيقة ما يجري من حوله.

ثانياً: تصدّع الجهاز الشعوريّ وانحياره وتنقلبه بين الحزن على ما مضى والخوف ممّا هو قادم.

ثالثاً: انهدام الجهاز الإرادي وفقدان العزم، والشلل على مستوى الحركة الإنسانية.

والأشدّ تعقيداً في زمن الحرب هو أنّ الأمر لا ينحصر في البعد الفردي؛ ففي الأحداث الاعتيادية قد يفقد المرء عزيزاً، أو تُهدم داره، أو يُصاب بجراح، فتكون الشدة وتبعاتها مقصورة عليه دون سواه، أمّا في أزمّة الحروب فإنّ هذا الخلل وهذا الزلزال النفسيّ ينتقل من حيّز النفس الفردية إلى فضاء النفس الاجتماعية، مستوعباً المجتمع بأسره.

والقاعدة هنا: أنّ المجتمع بمثابة إنسان كبير، ونحن أعضاؤه وأجهزته؛ ففكرنا يمثّل فكر المجتمع، ومشاعرنا تمثّل مشاعر المجتمع، وإرادتنا هي إرادة المجتمع بعينها؛ وبناءً على ذلك فإنّ الخلل النفسيّ الذي يعتري أحادنا هو ذاته الخلل الذي يكتنف مجتمعنا، كما أنّ السلامة والصحة النفسية التي نحياها هي عين الصحة النفسية للمجتمع؛ إذ ليس المجتمع كياناً منفصلاً عنّا، بل المجتمع هو نحن، فإن سُلبت إرادتنا فُقدت إرادة المجتمع تبعاً لذلك.

وعلى هذا الأساس نقول: إنّنا اليوم بإزاء تحدّي مصيريّ جسيم لا نعايشه دومًا بهذه الشدة، وإن كان بعضٌ منّا قد اختبر نظيره على شكل أحداث فردية خاصة - وهذا من سُنن الحياة كما تقدّم -، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّنا نواجهه اليوم بنحو اجتماعيّ عامّ، الأمر الذي وضع المجتمع بأسره أمام حزمة من الأسئلة المصيرية الملحة التي تقتضي إجابات شافية.

ومن هنا، عمدت مؤسسة الإمام الخميني (قدّس سرّه) إلى إعداد متن علميّ مختصر موجّه للفاعل الثقافيّ، كي يضبط حركته على ضوئه، كلّ ذلك وفقاً لنظريات وآراء آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي (رضوان الله عليه). والهدف من المتن: الإجابة عن ثمانية أسئلة مصيرية للعبور من الاضطرابات في زمن الحرب، وإدارة النفس والسيطرة على أبعادها الثلاثة: العقلي، القلبي والإراديّ. وقد تُرجم المتن ونُشر بعنوان «إدارة النفس في زمن الحرب».

وقد جاء في مقدّمة المتن ما يلي:

«في هذه الأيام التي أصبح فيها صوت الغارات الجووية وتدق الأخبار السيئة إيقاع حياتنا، بتنا ندرك أنّ المعركة لا تجري فقط على الحدود الجغرافية، بل إنّ عقولنا وقلوبنا تمثل الخندق الرئيسي لهذه المواجهة. فالعدو قبل أن يطلق صواريخه علينا، يستهدف «أملنا» و«حساباتنا»، كي يرسم طريقاً مسدوداً داخل أنفسنا.

وفي مثل هذه الظروف، نحتاج إلى «زاد فكري» أكثر من احتياجنا إلى أيّ «سلاح مادّي»، ونحتاج إلى منطقيّ يجبرنا: «لماذا نقاتل؟ وكيف يمكن ألا نخاف؟ وكيف نستطيع أن نحافظ على دوافعنا خلال هذا المسار الطويل ونبقيها حيّة كما كانت في اليوم الأوّل؟».

هذا الدليل الذي بين يدي القارئ يمثل «خارطة طريقٍ عمليّة» مؤلّفة من ثماني محطّات، سوف نسير على طبقها بدءاً من السؤال الأكثر جذريّة - وهو السؤال عن فلسفة الصراع في العالم -، مروراً بالنفس وحالاتها - من قبيل الخوف والصبر والأمل -، ثمّ تحديد التكليف والهدف الذي ينبغي جعله نصب أعيننا، وصولاً إلى عقد ميثاق العمل والسعي في ساحة الأسرة والمجتمع.

وقد أعدت هذه الخارطة كخلاصةٍ لرؤية العلامة الشيخ مصباح اليزدي (قدّس سرّه) في هذا المجال، هذا الرجل الربانيّ الذي كان يعتقد بأنّ العبد إذا أحكم صلته بمسبّب الأسباب، فإنّ إمكانيات العدو لن تكون أكثر من لعبةٍ لا قيمة لها في يد القدرة الإلهيّة¹.

أمّا هذا الكتاب المائل بين يدي القارئ العزيز، فهو تتميم لذلك المتن المختصر، وذلك من خلال إضافة بعض الآيات القرآنيّة والروايات الشريفة المرتبطة بالبحوث، وكذلك الاستشهاد بكلمات الإمام الخميني الراحل والإمام الشهيد السيّد علي الخامنئي والشهيد الشيخ مرتضى المطهري (قدّس الله أسرارهم جميعاً).

نسأل الله تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب نعم الزاد للفاعل الثقافيّ والمبلّغ الدينيّ ولكلّ من يريد إدارة نفسه في أزمنة الشدّة، وأن يكون محلّ قبول الله تبارك وتعالى ورضا صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

¹ اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 8 و9.

السؤال الأول: لماذا الحرب؟ وما هي فلسفة الصراع في العالم ونظام الخلق؟

شرح السؤال:

لماذا لم يجعل الله نظام الخلق على نحو لا يكون فيه أيّ حرب أو صراع؟ هل وجود الحرب يتوافق مع حكمة الله ورحمته؟ وما الهدف من هذه الصراعات الدموية في مسار تكامل الإنسان؟

الجواب:

للإجابة عن هذا السؤال، من المناسب أن نتعرّض ضمن خمس خطوات لمسألة الحرب من منظور النظام التكويني للعالم وفق الرؤية القرآنية:

الاختيار الخطير؛ ثمن كمال الإنسان

لاستكشاف سبب ظهور الحروب ينبغي الرجوع في البداية إلى نقطة مركزية وأساسية، وهي «الغاية من خلق الإنسان»، لأنّ هذه النقطة سوف تشكّل المفتاح لفهم واضح لكلّ ما نراه.

التأمّل في غاية خلق الإنسان يُرشدنا إلى النتيجة التالية: لقد خلّق الإنسان كي يصل إلى الكمال الاختياريّ. يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ الله تعالى لم يترك عالم الخلق مقتصرًا على الملائكة المجبورة على الخير والحيوانات الأسيرة للغريزة. فقد كان هناك فراغ في نظام الوجود لمخلوقٍ يستطيع بواسطة الاختيار الحرّ أن يسمو فوق الملائكة أو ينحطّ إلى ما دون الحيوان، ولذلك خلّق الإنسان المختار بين الخير والشرّ، كي يبلغ كماله الاختياريّ»¹. وهذا الكمال الاختياريّ هو الذي يمثّل سعادة الإنسان.

ولكن، حينما نتحدّث عن موجود مختار وكمال اختياريّ، فهذا يعني: وقوف الإنسان دائمًا أمام مفترق طرق ليختار سبيله بين الخير والشرّ بحريّة وإرادة.

يقول الشهيد مطهري (قدّس سرّه): «إنّ الإنسان خلّق للسعادة [...] منتهى الأمر أنّ الإنسان يقف في مرتبة من الوجود وموضع يجب معه أن يختار سبيله بكلّ حرّيّة»².

ويقول الإمام الخامني (قدّس سرّه): «جاء الإنسان إلى هذا العالم ليلبغ الكمال؛ فقد خلقت البشريّة لكي تتاح للإنسان في ميدان الاختبار هذا، أي في عالم الكون والفساد، فرصة للرقى والتكامل وبلوغ الكمال»³.

ويقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «حينما نتحدّث عن كمال اختياريّ، فنحن نتحدّث عن موجودٍ يقف بشكل دائمٍ أمام مفترق طريقين، طريقٍ خيرٍ وطريقٍ شرٍّ كي يختار بإرادته سلوك أحدهما، وهذا ما يُعبّر عنه بـ«الاختبار»

¹ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 10.

² مطهري، مرتضى، أنسنة الحياة في الإسلام، الصفحة 15.

³ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 1992/04/04.

و«الامتحان» و«الابتلاء»¹.

وهكذا يُفسّر الشيخ (قدّس سرّه) كلّ الآيات التي ورد فيها التعبير ب«الابتلاء»، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾². فالابتلاء هو الاختبار، والاختبار يتطلّب الاختيار، وأمّا سبب الاختبار فهو أن يختار الإنسان سبيل الخير فيبلغ الكمال الاختياري، وهنا تكمن قيمة الإنسان. يقول (قدّس سرّه): «وإنّ قيمة كمال الإنسان تكمن في: «اختياره للخير رغم قدرته على فعل الشرّ». ولو لم يمنح الله الإنسان الإرادة الحرّة، لما تحقّق الاختبار الحقيقي، ولما امتاز الجوهر الوجوديّ للإنسان المؤمن عن الإنسان الكافر»³.

إلا أنّ هذه الحرّيّة لها ضريبة قاسية، وهي: إمكان إساءة الاختيار واختيار الشرّ! يقول الشهيد مطهري (قدّس سرّه): «ولما كانت له حرّيّته، فإنّ الإنسان بعد أن هُدي السبيل، قد يُحسن الاختيار وقد يسيء ذلك: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾»⁴⁵.

وإذا تحدّثنا عن إمكانيّة اختيار الشرّ، فهذا يعني: إمكانيّة الظلم وسفك الدماء! ومن هنا يطرح الإمام الخميني (قدّس سرّه) ثنائيّة لا ثالث لها: الإنسان الإلهيّ والإنسان الطاغويّ!⁶

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «ولكنّ هذه الحرّيّة لها ظلّ ثقيل، وهو الظلم وسفك الدماء! فمن أجل الوصول إلى قمة السعادة، يجب أن يمتلك الإنسان الاختيار وحرّيّة الإرادة، كي يكون قادرًا على سلوك طريق الخير أو الشرّ، وهذا له ضريبة بطبيعة الحال، وهو: وقوع التزاحمات والصراعات والظلم وسفك الدماء وغيرها من الأمور الناتجة عن سوء اختيار بعض الناس في ساحة الاختبار الإنسانيّ. وهذا يمثّل ثمنًا حتميًا لاختيار هذا الموجود المميّز في نظام الخلق»⁷.

قانون الدفع؛ توازن القوى لبقاء الحقّ

ولكن ما السرّ في كوننا نحن تحديدًا الذين نواجه هذه الحروب في هذا الزمان؟! حيث ولكي تتّضح الإجابة عن هذه النقطة، ينبغي أن نفهم ما يُعرف ب«قانون الدفع»، ومفاد هذا القانون: أنّ الله سبحانه وتعالى يدفع القوى البشريّة بعضها ببعض، فلا يسمح لقوّة من قوى الشرّ أن تتعاضم تعاضمًا مطلقًا يحو كلّ أثرٍ للحقّ في هذا العالم؛ وذلك صيانةً لمشروع التكامل البشريّ من الاندثار.

¹ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 11.

² سورة الملك، الآية 2.

³ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 11.

⁴ سورة الإنسان، الآية 3.

⁵ مطهري، مرتضى، أنسنة الحياة في الإسلام، الصفحة 15.

⁶ انظر: الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 12، الصفحة 133.

⁷ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 11.

هنا يمكن أن نجد الله تبارك وتعالى يضع قوَّتين شريَّتين بوجه بعضهما حفظاً للحقِّ في العالم. ولكن ثمة جانب أرقى في هذا القانون الإلهي، وهو أن يستنهض الله تبارك وتعالى ثلَّةً من عباده وأوليائه والمخلصين له، موجَّهاً إليهم خطابه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ﴾¹. فتكون هذه الثلَّة هي الأمل والرهان لحفظ المشروع الإلهي. والسِّرُّ في ذلك هو أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن تُحسم كل الصراعات في عالم التكليف بنزول صاعقةٍ من السماء أو طوفانٍ جارٍ يُهلك الكافرين إعجازاً، بل ألقى على عاتق جبهة الحقِّ مسؤوليَّة تحقيق هذا الدفع بسعيها وجهادها. فمع أنَّ الأقوام الظالمة في العصور السابقة كانت تهلك بالآيات الخارقة حينما يستفحل الشرُّ فيها، إلَّا أنَّ الغاية النهائية ليست إبقاء الصراع محكوماً بهذه الآيات القهريَّة، بل إرادة الله هي أن ترتقي جبهة الحقِّ حتَّى تغدو هي المظهر للبطش والعقاب الإلهي بالظالمين.

يقول الشيخ اليزدي (قدَّس سرّه): «في عالمٍ يوجد فيه الشرُّ، إذا ظهرت قوَّة مادِّيَّة مطلقة لا منافس لها، فإنَّ الأرض كلّها سوف تصل إلى طريقٍ مسدودٍ من الفساد. ولذلك، فبحسب قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾²، يضع الله تعالى جبهات القوى في مواجهة بعضها كي يتحقَّق «التوازن». فلو لم يكن هناك احتكاك واصطدام بين القوى، لاقطع طغاة التاريخ جذور العبوديَّة بالكامل. وهنا تكون الحرب بمثابة «الترياق» الذي وإن كان مرّاً، ولكنّه إلَّا أنّه ضروريّ ومطلوب لمواجهة ضرر أكبر»³.

ومن الشواهد القرآنيَّة على ذلك أيضاً قول الله عزَّ وجلَّ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁴. وهي الآية التي يُعدِّد فيها الله تعالى دور العبادة ليدلَّ دلالةً قاطعةً على أنّه لولا نهوض أهل الحقِّ بهذا الدفع لاندثر كل موضعٍ يُذكر فيه اسم الله تعالى، وهذا يعني انسداد طريق السعادة والكمال الإنسانيّ بنحوٍ كليّ.

إذاً، بحكم هذا القانون الإلهي، كنّا نحن المختارين من قِبَل الله لهذه المسؤوليَّة، ولنا أن نختار: إمّا أن نحمل الريبة ونمضي في تحقيق المشروع الإلهي، والذي يمثّل في الوقت ذاته كمالنا الإنسانيّ، وإمّا أن نرفض ذلك فنُستبدل بغيرنا ونخسر هذه الفرصة العظيمة والشرف الكبير.

ولكن هنا قد يخطر في البال السؤال التالي: ألا يمكن أن تجتمع القوى الكبرى الشرّيرة وتتحد ضدنا وتقضي علينا؟! يتعرَّض الشيخ اليزدي (قدَّس سرّه) لهذا السؤال ويحيب عنه مستفيداً من الوعود الإلهيَّة بنصرة الله لمن ينصره.

يقول (قدَّس سرّه): «إذا كان الأمر كذلك، يُطرح السؤال التالي: أليس من الممكن أن تدخل جبهتان باطلتان في

¹ سورة سبأ، الآية 46.

² سورة البقرة، الآية 251.

³ اليزدي، محمد تقی، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 12.

⁴ سورة الحج، الآية 40.

صراع القوى، وتُباد جبهة الحقّ بالكامل؟!!

في الجواب ينبغي القول: إنّ الهزيمة والانتصار الظاهريَّين من مقتضيات المعركة، ولكن وفقًا للوعود القرآنيّة، وخصوصًا الآية 40 من سورة الحجّ¹، فإنّ شعله جبهة الحقّ لا تنطفئ أبدًا. إذن، نحن جزء من قطار جبهة الحقّ الذي يتحرّك خطوةً بخطوة نحو القمّة، حتّى لو استشهد جيش الحقّ كلّهُ في فترةٍ معيّنة، كما حصل مع جيش سيّد الشهداء (عليه السلام)، فإنّ التيّار الحيّ الأقوى في التاريخ سوف يخرج من قلب تلك الواقعة نفسها»².

الصدمة الكهربائية للحرب؛ يقظة من مستنقع الفتور

الجماعة التي اصطفاه الله سبحانه وتعالى يكمن تحديها الأكبر في مراحل الرخاء. فهذه المراحل ظاهرها الاستقرار والنعمة، ولكن قد يكون باطنها «الفتور النفسي والاجتماعي» الذي يطرأ على الفرد والمجتمع، فيقع في ما يصطلح عليه الشيخ اليزدي (قدس سرّه) بـ«مستنقع الفتور». فإذا وجد الله سبحانه وتعالى أنّ هذا المجتمع قد أشرف على الهلاك بفعل هذا الفتور والتخدير، تدخّل بالترياق الشافي المتمثّل في الحن والحروب والأزمات؛ والتي يُشبّهها الشيخ المصباح بصدمة كهربائية مُحْيِية تُنقذ المجتمع قبل موته، فتقلب المحنة في حقيقتها إلى مظهرٍ من مظاهر الرحمة والخير الإلهي، فنحن «مشروع الله تعالى»، وهو سبحانه لا يريد أن يستغني عنّا، ولا يسمح لنا بأن نغرق في مستنقع الفتور.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «السلام الطويل والرفاهيّة المادّيّة، خلافاً لمظهرهما الخادع، يمكن أن يكونا سبباً لروح أيّ أمة من الأمم. ففي زمن الراحة تخمد الطاقات وتتجذّر التعلّقات. والحرب هي بمثابة «عملية جراحية مؤلمة» أو «صدمة كهربائية» توقف الطاقات الخاملة لدى الأُمّة وتُخرج المجتمع من حالة الركود»³.

ويعتقد الإمام الخامنئي (قدّس سرّه) أنّ معنى «اجتياز الإنسان للامتحان» هو «تفجير المواهب الكامنة في وجوده»⁴.

وهذا الاجتياز للامتحان هو الذي يولّد الطاقات من جديد، ويفتح أمام المجتمع أبواب العزّة والاقتدار. ولذلك يقول الإمام الخامني (قدّس سرّه): «حينما نمتحن أنا وأنتم فمعنى ذلك أننا إذا استطعنا اجتياز الشدّة والمحنة فسوف نعيش واقعًا جديدًا وحياة جديدة ومرحلة جديدة. ولا فرق بين الفرد والأمة في هذا المجال»⁵.

ويقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ الاقتدار العلميّ أو العسكريّ أو سائر أشكال الاقتدار التي يمكن للأمة أن تنالها، وكذلك روح الإيثار والتضحية والبذل التي يمكن أن تُبثّ فيها، لا تتحقّق في قاعات الرفاهيّة الفاخرة،

¹ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۚ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج، الآية 40).

² اليزدي، محمد تقی، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 12 و 13.

³ اليزدي، محمد تقی، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 13.

⁴ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2010/11/17.

⁵ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2010/11/17.

بل هي ثمرة أتون الحرب»¹. ويستشهد (قدّس سرّه) على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾².

وللشهيد مطهري (قدّس سرّه) في هذا المجال كلام مهمّ جدًّا في محاضرة له بعنوان «الشدائد والصعاب»، يُنصح بالرجوع إليها ومطالعتها، ومّا جاء فيها: «كلّما كانت المواجهة مع الشدائد أكبر، كان أثرها في التربية والتكامل والصقل أعمق»³.

التمحيص؛ غربة المدّعين عن الصادقين

هذه المسألة في غاية الأهميّة، فالإنسان في أزمنة الرخاء والسعة قد يتوهّم أنّ رؤيته ناصعة وواضحة تمامًا، وأنّه على مستوى قلبه لا يمكن أن يتملّكه الخوف ولا الحزن، وأنّه على استعداد تامّ لتحمل كلّ المشقّات، ولكن بمجرد أن تتغيّر الأحوال، فتقع الحرب وتُدمر البيوت ويُستشهد الأحبّة، ينكشف له أنّه كان في وهم لا أكثر. وإنّ الله سبحانه وتعالى لا يريد لعباده أن يخدعوا أنفسهم أو يعيشوا في الوهم، ولأجل ذلك تَرُدُّ عليهم هذه المحطّات المصيريّة لتكون تمحيصًا إلهيًا وميزانًا واختبارًا للفكر والقلب والإرادة.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «في زمن السلم، يدّعي الجميع طلب الحقّ والشجاعة، ولكنّ الحرب تكشف القيمة الحقيقيّة تحت ضوء الدمار والأنقاض. والتعبير القرآنيّ عن هذه الحالة هو «التمحيص»، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾⁴. فالحرب من خلال عمليّة جراحية دقيقة تفصل الذين تعلّقت قلوبهم بالدنيا عن العاشقين الصادقين. وهذه الضغوط تغسل أدران التعلّقات وترفع المؤمن إلى مستوى من الإيمان لم يكن من الممكن الوصول إليه في الظروف العاديّة»⁵.

وبالإضافة إلى الآيات الكريمة، نجد هذا المعنى حاضرًا في رواياتنا الشريفة أيضًا، فعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «وَاللّٰهُ لَتُمَحِّصَنَّ وَاللّٰهُ لَتُمَيِّزَنَّ وَاللّٰهُ لَتُغْرِبْلَنَّ»⁶. وقبله أمير المؤمنين (عليه السلام) حين قال: «لَتُبْلَلُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغْرِبْلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتَسَاطُنَّ سَوَاطِنَ الْقَدْرِ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلُكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصْرًا وَلَيَقْصِرَنَّ سَبَاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا»⁷.

وفي هذا المجال، يقول الإمام الخامنّي (قدّس سرّه) في تفسيره قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ

¹ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 13 و 14.

² سورة البقرة، الآية 214.

³ مطهري، مرتضى، الفكر الإسلامي، الصفحة 218.

⁴ سورة آل عمران، الآية 141.

⁵ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 14.

⁶ المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 5، الصفحة 216.

⁷ الشريف الرضي، محمّد بن الحسين، نهج البلاغة، الخطبة 16.

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»¹ ما يلي:

«تسأل هذه الآية المسلمين عن ظنهم بأن الله سوف يتركهم قبل أن يعلم المجاهدين منهم والذين لم يختاروا أحداً سوى الله ورسوله ليكون لهم معتمداً ومستنداً؟ والجواب عن هذا السؤال بالنفي؛ فلن يترك المسلمون قبل أن يمتازوا وفق الأسس المبينة في الآية، والله خبير ومطلع على ما يفعل المسلمون.

والمفهوم من الآية هو أنّ الله لن يترك المسلمين قبل أن تمتاز الفئة التي قطعت كلّ صلاتها بغير الله ورسوله وانصرفت إلى الجهاد، وهذه الفئة سوف تظهر بالتدرّج نتيجة الغربة التي يتعرّض لها المسلمون والامتحانات التي يتجاوزونها، وسوف يؤدي ذلك إلى ظهور هذه الجماعة وتمييزها داخل المجتمع الإسلامي»².

ويقول الإمام الخميني (قدّس سرّه) في هذا السياق: «هل يظنّ الناس أن يتركوا دون امتحان وتمحيص، لمجرّد ادّعائهم الإيمان أو لمجرّد ادّعائهم أهمّ طلاب للحرّيّة والعدالة؟»³.

وللشهيد مطهري (قدّس سرّه) في تفسيره للآية السابعة والثلاثين من سورة الأنفال - وهي قوله تعالى: ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾⁴ - كلام حول هذه الفلسفة القرآنيّة للحروب والبلاءات، حيث يقول: «حين يكون المجتمع هادئاً، فهذا يعني أنّ امتحاناً كبيراً لم يطرأ بعد؛ فيرى الإنسان الناس جميعاً على لونٍ واحد، متشابهين ومتماثلين. ويخيّل إليه أنّ هناك مجتمعاً متجانساً متّحد الصفوف، بل إنّ بعض الأفراد قد يبدون أفضل من غيرهم بكثير، إلى أن تقع حادثة شديدة، أو يأتي - بتعبير القرآن الكريم - امتحانٌ وابتلاء. عندها يرى الإنسان، فجأة، وكأنّ الناس يُغرّلون»⁵.

إلى أن يقول (قدّس سرّه): «ومن جهةٍ ما، يكون هذا الأمر باعثاً على شديد الأسف؛ إذ يرى الإنسان أحياناً أشخاصاً لم يكن يتوقّع منهم شيئاً، فإذا بهم يظهرون على حقيقتهم على نحوٍ مخيّب للآمال. ولكن من وجهة نظر الإنسان الدقيق، البصير، المتأمل في الأمور، ينبغي أن يقال: لقد كان خيراً أن تمايزت الصفوف وانفصل بعضها عن بعض»⁶.

في عمليّة الصعود؛ النظر إلى «الغاية» لا إلى «الدمار»

من الأسئلة التي قد تخطر في البال هنا هو أنّ المجتمع قد يختار السير على طريق إعلاء كلمة الله وتحقيق المشروع الإلهي، ولكنّه كلّما نهض واستجمع قواه، وجد نفسه في أتون حرب مدمّرة جديدة! ألا يعني هذا الأمر أنّ ثمة خطأ ما في المسار الذي اختاره هذا المجتمع؟!

¹ سورة التوبة، الآية 16.

² الخامنئي، علي، تفسير سورة براءة، الصفحة 145.

³ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 13، الصفحة 361.

⁴ سورة الأنفال، الآية 37.

⁵ مطهري، مرتضى، آشنائي با قرآن، الجزء 3، الصفحة 51.

⁶ مطهري، مرتضى، آشنائي با قرآن، الجزء 3، الصفحة 52.

والجواب عن هذا السؤال هو أنّ المعيار الذي يُحدّد ما إذا كان المجتمع يسير نحو كماله أو لا، ليس ما يقع في اللحظة الراهنة والظرف الآنيّ من ناحية الأوضاع المادّيّة والمعيشيّة؛ فقد يرى الإنسان دماراً أو يشهد قتلاً، لكنّ ذلك لا يعني بحال من الأحوال التراجع والتقهر، فإنّ أعظم خطأ في الحسابات هو الاقتصار على النظرة المحدودة باللحظة الحاضرة.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «أكبر خطأ في الحسابات هو النظر إلى «النقطة الحاليّة» - وهي الدماء والفقدان والدمار والخراب - بدلاً من النظر إلى «المسار الكلّي». إنّ انتصار جبهة الحقّ ليس احتمالاً، بل هو تقدير حتميّ وُقِع في نظام التكوين قبل بدء المعركة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾¹.

وعلى هذا الأساس، فإنّ استشهاد القادة لا يُعدّ مؤشّراً على التراجع، بل المدار كلّهُ على المسار الكلّي، وهو يُقاس بمعيار واحد لا ثاني له، وهو: التكليف. فلا ينبغي لأحد أن يتوهّم أنّ عمارة البيوت دليلٌ على السير نحو الهدف، وأنّ دمارها علامةٌ على الانحراف، بل الميزان هو النظر في صلب المسار الكلّي: هل نمضي فيه خطوةً بخطوة امتثالاً لتكليف الله وأمره، أم استجابةً للأهواء النفسانيّة؟ فإن كان السير مبنياً على الهوى، فالمرء في ضلال ومسار خاطئ وإن كانت داره عامرة، وإن كان قائماً على العبوديّة والتكليف، فهو على الصراط المستقيم وإن دُمّرت الديار.

من هنا، يقول الإمام الخامني (قدّس سرّه) في تعداده للأخطاء التي وقع فيها المنافقون: «الخطأ الثاني الذي وقع فيه المنافقون هو أنهم غفلوا عن السنن والقوانين التي تحكم العالم. فهم لا يعلمون أنّ الانكسار الجزئيّ والمصاب الموردّي الذي يقع لجماعةٍ فكريّة لا يعني انهزام المشروع الفكريّ على المدى الأوسع، ولا يعني توقّف مساره. فهم لا يعلمون أنّه في حركة الصراع بين جماعتين أو فئتين سوف يكون النجاح والفوز في نهاية المطاف للجماعة التي تحمل فكرًا وتبنّي نظريّةً فكريّةً واجتماعيّةً، والجماعة التي لا تستند إلى الفكر والخلفيّة النظرية سوف تهزم في آخر الخطّ؛ غير أنّ حركة الصراع بين هاتين الجماعتين تحتوي على صعودٍ وهبوطٍ واهتزازات طبيعيّة، والنصر والهزيمة النهائيّة لا تُقاس بهذه الاهتزازات»².

ويقول (قدّس سرّه) أيضاً: «فعندما يتقابل الحقّ والباطل، ويخوضان المواجهة، سوف يكون النصر والفوز من نصيب الحقّ. وهذه هي سنّة هذا العالم؛ لأنّ العالم والوجود خُلِق على قاعدة الحقّ، ومسار الطبيعة محكومٌ لقواعد الحقّ والحقيقة؛ ولأجل هذا نجد أنّ الحقّ يسير إلى الأمام بشكلٍ دائمٍ. وهذا معنّى عامٌّ وصحيحٌ [...] فإنّ المصير المقدّر للإسلام والمسلمين هو الفلاح والنجاح»³.

على هذا الأساس، يؤكّد الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّنا لسنا ضحايا حادثة، بل جنود في خطّة عظيمة. فإذا علمنا أنّ نهاية هذا الطريق تصل إلى القمة، فإنّ الوديان المخيفة على امتداد الطريق لن تخيفنا، بل إنّ خوفنا

¹ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 14 و15.

² الخامني، علي، تفسير سورة براءة، الصفحة 336.

³ الخامني، علي، تفسير سورة براءة، الصفحة 338.

الحقيقي هو ألا يكون لنا دور في تحقيق هذا الهدف العظيم أو أن نقف في مقابله». ومن هنا نجد الإمام الخامنئي (قدّس سرّه) حينما يُسأل عن الأحداث العصبية التي نعيشها يكون جوابه: «هذه الأمور التي ترونها ليست إلا حوادث طبيعية في طريق شاق نحو القمة»¹.

الخلاصة

عندما تحدّق في الدماء والدمار والأنقاض، فإنّك لا ترى إلا الشرّ، ولكن عندما تنظر إلى «الهندسة الإلهية»، تُدرك أنّ هذا الأتون وُجد للتنقية. الحرب هي ميدان اختبار الإرادة والاختيار، فإذا رأيت طريقاً مسدوداً، فاعلم أنّك صرفت نظرك عن «مسبّب الأسباب». والاختيار الصحيح هنا ليس الهروب من الميدان لأجل عدم فقدان الأحبة، لأنّك إذا اخترت عدم القتال، فلن يكفّ العدو عن استعمارك وظلمك إلا إذا تخلّيت عن كلّ معتقداتك، وبالتالي عن طريق سعادتك. الاختيار الصحيح هو الثقة بخطة الله الذي أرسل أعزّ عباده، وهو سيّد الشهداء (عليه السلام)، إلى معركة جعلت التاريخ يرثي مصائبها. فإذا نظرنا إلى المصير السامي للبشريّة، فسنقول: لقد كانت كلّ هذه المشاق تستحقّ ذلك! يا ربّ، لقد كنت صادقاً حقاً!

¹ من لقاء له (قدّس سرّه) مع الجريح علي خوش لفظ بتاريخ 2017/01/05.

السؤال الثاني: كيف يمكن ألا نخاف ونبقى متفائلين؟ كيف يمكن أن نحافظ على دافعيتنا في هذا المسار الطويل؟

شرح السؤال:

عندما تجربنا الشواهد المادية والأخبار التي تصل إلينا أننا متجهون نحو طريق مسدود، كيف يمكن أن نسيطر على مخاوفنا ونستبدل الحسابات المادية بأمل صادق؟ وأحياناً، نحن لا نخاف على حياتنا، بل نقلق من ضياع دماء أحبائنا سدى! فكيف يمكننا أن نبقى متفائلين حيال مستقبل هذه الحرب وسط سيل الأخبار المحبطة؟ وكيف يمكننا إدارة الأخبار بما يخدم طمأنيتنا القلبية؟

الجواب:

قبل الإجابة عن السؤال، لا بدّ من التنبيه إلى أنّ الخوف المقصود في كلامنا هو الخوف المذموم، وهذا الخوف ليس بمعنى استشعار الخطر، إذ لو لم يستشعر الإنسان الخطر عند قدومه لما نهض لدفعه ومواجهته. ولكنّ الخوف المذموم هو سيطرة الخطر على النفس بكلّ مستوياتها الفكرية والشعورية والإرادية، وصيرورة القوى النفسية مكبلةً وعاجزةً عن القيام بأيّ نشاط.

وحثّ نقي أنفسنا من الخوف في هذه المعركة الطويلة، وحثّ نحافظ على دافعيتنا في هذه الحرب الطويلة ونُبقيها كما كانت في اليوم الأول، ينبغي علينا إعادة بناء «نظام الحسابات» الذي يتحكّم بمشاعرنا، وذلك ضمن خمسة محاور:

إدارة المدخلات؛ الحماية الإخبارية ومرجعية التحليل

متى ما سيطر الخطر على الفكر، كان من الطبيعي أن ينفعل الجهاز النفسي خوفاً واضطراباً؛ ومن هذا المنطلق يطرح الشيخ اليزدي (قدّس سرّه) مسارين وقائيين من الخوف:

المسار الأول: الحماية الإخبارية.

المسار الثاني: المرجعية التحليلية.

والسرّ في ذلك هو أنّ منشأ الخوف في النفوس هو الأفكار التي تسيطر على الذهن: إمّا على شكل أخبار، أو على شكل تحليلات. وحينما يُراكم الإنسان في ذهنه مجموعة من الأخبار السيئة التي يتلقاها من ألف مصدرٍ من دون أن يميّز بين الصادق والكاذب، ثمّ يُصغي إلى مجموعة من التحليلات السلبية لفلان وفلان من دون أن يميّز بين البصير والجاهل، فحينها سوف يكون من الطبيعي جداً أن يسيطر عليه الخوف.

ثمّ إنّ المحرك الأساسي للإنسان وللمجتمع الإنسانيّ هو «الأمل». لذلك يقول الإمام الخامنّي (قدّس سرّه): «إذا كان الأمل في عصر مشرق حيّاً في القلوب، فسيكون النضال ممكناً، وإذا مات الأمل، فستموت أيضاً الحركة نحو

الصالح»¹.

والمعادلة التي تُنتج الأمل في الإنسان هي المعادلة التالية: «الأمل» هو نتائج ضرب أمرين: «احتمالية التحقق» في «شوق الوصول».

ومعنى ذلك: أنّ انبعاث الأمل في النفس تجاه أمرٍ معيّن يحصل باجتماع ركنين:

1. احتمال مُعتدّ به لتحقيق هذا الأمر.

2. شوق مُعتدّ به للوصول إلى هذا الأمر.

وفي المقابل يضعف الأمل حينما تقلّ احتمالية تحقق الأمر، وكذلك حينما يبرد الشوق تجاهه.

هذه المعادلة يفهمها العدو جيّدًا، ولذلك يعتمد إلى إلقاء نوع محدّد من الأخبار وترويج نخط معيّن من التحليلات، كلّ ذلك من أجل إيصال احتمال تحقيق أهدافنا إلى الصفر، وبالتالي إيصال الأمل في نفوسنا إلى الصفر. فمهما كان الشوق في نفوسنا قويًّا، فإذا كان احتمال التحقق منتفياً، كان الأمل منتفياً، لأنّ العدد الذي تضربه بصفر، سوف يُنتج صفرًا، مهما كان كبيرًا.

ولا يكتفي العدو بذلك، بل يلقي أخبارًا وتحليلات تصبّ في إطار إضعاف الشوق تجاه الأهداف، واقتلاعه من القلوب، كترويج سرديات مرتبطة بالسلام المزعوم مع الاستكبار، لكي تنشّد النفوس نحو هذه المشاريع، ويضعف شوقها تجاه الأهداف الإلهية الكبرى.

وهنا تكمن أهميّة ما نصغي إليه من أخبار وتحليلات، ولذلك يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «الأمل هو نتاج احتمال التحقق وشوق الوصول، والعدوّ يستهدف هذين الأمرين تحديداً عبر الأخبار المزوجة بالكذب. ولذلك فإنّ الابتعاد عن أخبار العدو المحبّطة، والتي تهدف إلى شلّ الذهن، يمثّل ضرورة شرعية وعقلية.

وكذلك فإنّه من أجل الحفاظ على التفاؤل، ينبغي علينا تلقّي التحليل المرتبط بالميدان من أصحاب البصيرة، وفي مقدّمتهم قادتنا، وعلى رأسهم قائد الثورة الإسلامية (دام ظلّه)، والابتعاد عن التحليلات الهامشية. فالثقة بالرواية المعتمدة لدى جبهتنا تفتح أعيننا، وتُخرجنا من الطرق المسدودة المتخيّلة إلى الانتصارات الواقعية»².

وتزداد خطورة المسألة حينما نلتفت إلى هذه الكلمة الخطيرة التي قالها الإمام الخميني (قدّس سرّه) ذات مرّة، حيث قال: «في بدايات الثورة الإسلامية، يوجّه الرئيس الأمريكيّ أمرَ الإطاحة بالجمهورية الإسلامية. النقطة اللافتة أنّه يذكر بأيّ وسيلة عليكم الإطاحة بها، وأوّل نقطة يذكرها هي: الدعاية الإعلامية!»³.

ومن هنا ينبّه الإمام الخميني (قدّس سرّه) الشباب بقوله: «شبابنا الأعزّاء، كونوا على حذر، لا تصدّقوا كلّ ما يقال، لأنّ من أساليب الأعداء نشر كلّ ما من شأنه أن يبعث اليأس في نفوس الناس»⁴.

¹ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 13/03/1990.

² اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 18.

³ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 09/01/2023.

⁴ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 10، الصفحة 385.

ويقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه): «إنّ الأداة الأساسيّة للعدوّ هي بثّ الخوف والترهيب. أنتم أقوىاء، وهو يروّج لضعفكم حتّى يخيفكم. أيديكم مملوءة، لكنّه يروّج لتكون فارغة حتّى يحبطكم»¹.
من هنا نجد الشهيد مطهري في كتبه المختلفة يكرّر التذكير بما حصل في معركة أحد حينما صدّق جمع كبير من المسلمين إشاعة قتل النبي (صلّى الله عليه وآله) فاهارت معنويّاتهم بشكل كامل بفعل شائعة كاذبة!

تغيير محور القلق؛ من «الذات» إلى «جبهة الحقّ»

ينبغي أن يرجع الإنسان إلى نفسه ليستكشف محور قلقه وخوفه، لأنّ استكشاف محور الخوف يساعد على علاجه. فالخوف ينقسم إلى قسمين بحسب محوره:
القسم الأوّل: الخوف على النفس أو الأقارب أو البيت أو الممتلكات.
القسم الثاني: الخوف على جبهة الحقّ والمشروع الإلهي.
والخوف الثاني بطبيعة الحال أرقى من الخوف الأوّل، ولكن كلا الخوفين ينبغي التخلّص منهما.
الخوف على النفس أو الأقارب أو البيت أو الممتلكات، أو الخوف من المصاعب الشخصيّة المادّيّة بشكل عامّ، حينما يسيطر على الإنسان، يجعله ينهار بمجرّد حلول خطر شخصيٍّ ومادّيٍّ.
يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «الخوف والرجاء وجهان لعملة واحدة، ولكن يجب أن نسأل أنفسنا: من ماذا نخاف؟ وبماذا نتعلّق؟ فإذا كان محور خوفنا هو «المصاعب الشخصيّة والذاتيّة»، فإنّنا سننهار مع أيّ ضغط معيشيٍّ أو عسكريٍّ»².

وسوف نتحدّث لاحقاً حول طرق لعلاج هذا القسم من الخوف، أمّا الآن فنسلّط الضوء على القسم الثاني من الخوف والقلق، وهو الخوف على جبهة الحقّ ومسيرة المشروع الإلهي؛ والذي يكشف عن قطع الإنسان شوطاً في تربية نفسه وتهذيبها، حتّى نجد الإنسان يقول: «إنّ كلّ خوفيّ هو على جبهة الحقّ ومسيرتها». ولكن مع ذلك، ينبغي التخلّص من هذا الخوف، وذلك بأن نقول للإنسان:

إذا كنت مشفقاً على جبهة الحقّ، فإنّ لهذا الحقّ ربّاً ومدبّراً ومولى، وهو سبحانه قد تكفّل بنصرة هذا الحقّ؛ فاطمئنّ، واجعل جلّ اهتمامك منصباً على أداء تكليفك، وأن تكون جزءاً فاعلاً في جبهة الحقّ.
يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «ولكن إذا كان محور قلقنا هو «رفعة راية الإسلام»، فيما أنّ الله هو الذي وعد بالنصر القطعيّ، فإنّ قلوبنا ستطمئنّ». ثمّ يضيف قائلاً: «عندما يقول قائدنا إنّ هذا الطريق هو الطريق الصحيح، فحينها سواء قُتلنا أو بقينا أحياء، فنحن منتصرون، ففي هذه الصفقة، لا معنى للخسارة»³.

هذا الكلام بعينه أكّد عليه الإمام الخميني (قدّس سرّه) في حديثه عن آثار القيام لله، حيث يقول: «المعيار هو أن

¹ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2024/12/22م.

² اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 18.

³ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 18 و 19.

يشخص الإنسان كون القيام لله، فإذا أصبح قياماً لله، فلا خوف من كوننا وحدنا أو من قلة عددنا، فلا خسران ولا ضرر في القيام إذا كان لله»¹.

ولنتأمل في هذا الكلام للإمام الخامنئي (قدس سرّه): «فعندما يتقابل الحقّ والباطل، ويخوضان المواجهة، سوف يكون النصر والفوز من نصيب الحقّ. وهذه هي سنة هذا العالم؛ لأنّ العالم والوجود خلق على قاعدة الحقّ، ومسار الطبيعة محكوم لقواعد الحقّ والحقيقة؛ ولأجل هذا نجد أنّ الحقّ يسير إلى الأمام بشكلٍ دائمٍ. وهذا معنيّ عامٌّ وصحيحٌ»².

إدارة العاطفة؛ ربح الصفقة والأثر المضاعف

هذا ما يتعلّق بالخوف حيال مستقبل ومصير جبهة الحقّ، ولكن ماذا عن الخوف الشخصي؟! ينبغي علينا أن نسأل أنفسنا دائماً: ممّا نخاف؟ وهل هذا الأمر حقّاً يستحقّ الخوف؟!

هل نخاف من الاستشهاد في هذه الحرب؟! وهل الاستشهاد في سبيل الله سوى ولادة في العالم الأبدى؟! هل يُعقل أن يخشى المؤمن من أن يُولد في النشأة الأبدية شهيداً؟! هل يخشى العاقل أن ينتقل من موطن الضعف إلى موطن القوّة، ومن حضيض الجهل إلى سماء العلم والمعرفة؟! من عالم الخُجُب إلى عالم الارتباط بمحمّد وآل محمّد ومجاورتهم (صلوات الله عليهم أجمعين).

قد تقول الزوجة: إنّني خائفة من استشهاد زوجي، وقد تقول الأمّ: إنّني خائفة من استشهاد ولدي، ولكن هل من المعقول أن نخاف من ولادة أعزّائنا في العالم الأبدى، ونيلهم شرف لقاء الحسين (عليه السلام)؟!

قد يقول أحد: خوفنا ناشئ من ألم الفقد والغياب، ولكن أليس الله تبارك وتعالى يقول في الحديث القدسيّ في حقّ الشهيد: «أَنَا خَلِيفَتُهُ فِي أَهْلِهِ»³؟! أليس الشهيد حيّاً يستبشر بأحبّائه ولا ينقطع عن أهله؟! وهل المعيار في القرب والفقد هو البصر المادّي، أم الارتباط القلبيّ والرعاية الحقيقيّة؟! إنّ تأثير الشهيد بعد شهادته أشدّ بأضعاف ممّا كان عليه في نشأته الدنيويّة، فهو كان مقيّداً بقيود الزمان والمكان ومحدوديّة القدرة، وقد ارتفع ذلك الحجاب المادّي بشهادته.

وقد يقول أحد: إنّني أخاف من فقْدِ داري وتلف مالي، ولكن أليست كلّ صفقة يذلّها العبدُ مع الله تعالى هي صفقة رابحة، بل أرباحها مضاعفة؟! أليس الله هو الذي اشترى هذا المال؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ﴾⁴.

يقول الشيخ اليزدي (قدس سرّه): «الخوف من فقدان المال والأحبّة أمر طبيعيّ، ولكن ثمة عاملان يحوّلان هذه

¹ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 5، الصفحة 27.

² الخامنئي، علي، تفسير سورة براءة، الصفحة 338.

³ المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 97، الصفحة 13.

⁴ سورة التوبة، الآية 111.

المرارة إلى حلاوة:

العامل الأول: الالتفات إلى ربح الصفقة

فالحبيب الذي ربّما كان سيرحل عن الدنيا بموت طبيعيّ أو يضلّ في فتنةٍ، قد وصل الآن بواسطة الشهادة إلى السعادة الأبدية.

العامل الثاني: الالتفات إلى الأثر المضاعف

دم الشهيد لا يذهب هدرًا، فهو باستشهاده يُحدث في الدنيا تحولًا أكبر ممّا كان يحدثه في حياته. كما لا ينبغي أن ننسى أنّ الله وعد بإنزال السكينة على قلوب عباده المجاهدين، وهذه السكينة هدية إلهية تقتل الخوف من جذوره»¹.

وفي ما يتعلّق بالعامل الأول، يقول الإمام الخامني (قدّس سرّه) في بيانه لعظمة الشهادة: «الشهادة نعمة وهدية من الله؛ لا يمنحون هذه الهدية لأيّ كان. لماذا هي هدية الله؟ لأنّ الله عزّ وجلّ يبدّل الموت الحتمي الذي لا مفرّ منه إلى ظاهرة يُفتخر بها في الدنيا والآخرة؛ أليست هذه هدية؟»².

وأما في ما يتعلّق بالعامل الثاني، فللإمام الخامني (قدّس سرّه) بحوث موسّعة في الآثار المضاعفة لدماء الشهداء، سواء على مستوى مجتمعهم أو العالم الإسلاميّ أو العالم بأسره، ويمكن مطالعتها في كتاب «الشهادة تجارة الأذكياء».

وللشهيد مطهري (قدّس سرّه) كلام يسكن الفؤاد، وقد جُمع في كتيب عنوانه «شهيد يتحدّث عن شهيد». ولنتأمّل أيضًا في هذا الكلام للإمام الخميني (قدّس سرّه) حيث يقول: «فمن كان الله معه ممّ يخاف؟ عندما تعملون لله ماذا يخيفكم؟ أتخافون الاستشهاد؟ هل إنّ الاستشهاد مخيف؟ أتخافون السجن؟ هل إنّ السجن في سبيل الله مخيف؟ أتخافون التعذيب؟ فهل التعذيب في سبيل الله مؤلم؟»³.

إبطال خدعة الزمن؛ ما هو التكليف «الآن»؟

إضافةً إلى كلّ ما تقدّم، هناك مسألة في غاية الأهمية ينبغي أن نتنبّه إليها، وهي أنّ كثيرًا من القلق والخوف النفسيّ ينشأ من «وضع مهلة زمنية للحرب وتقدير أمدٍ لانتهاؤها»، وهنا يقع الإنسان في خدعة يسمّيها الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «خدعة الزمن». ومكمنُ الخطر في هذه الخدعة أنّ الإنسان حين يقدر للشدة شهرين مثلاً، يستولي عليه الاضطراب إن قربت نهايتها، فإذا بلغت شهرين ويومًا واحدًا أصابه الانهيار؛ لأنّ طاقته النفسية كانت مبرمجةً على أمدٍ محدود.

والعلاج لهذه المشكلة هو أن نرجع إلى الغاية من أصل وجودنا في دار التكليف، وهي «بذل الجهد في الله وفي

¹ اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 19.

² من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2005/05/02م.

³ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 18، الصفحة 339.

سبيل الله ما دمنا أحياء!» فحين نتأمل في القرآن المجيد نجد أنّ حركة الجهاد هذه غيرُ مقيّدةٍ بأجلٍ زمنيٍّ محدّد. نعم، يمكن أن تتغيّر أشكال الجهاد ومظاهره، ولكنّه لا ينقطع إلّا بالموت والانتقال من هذا العالم. وعليه، يحذّر الشيخ اليزدي (قدّس سرّه) من الوقوع في فخّ التوقيت.

حين تترسّخ هذه الرؤية يزول الخوفُ والجزع سواءً طال أمدُ البلاء عقداً أو عقدين أو ثلاثة، ويغدو كلّ ألمٍ نكابه بمثابة بُدْرٍ يُثمر السعادةَ الأبديةَ للفرد والمجتمع.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «من أكبر عوامل التعب، تحديد موعد نهائيٍّ للحرب. فإذا كنّا قد أعددنا أنفسنا لعشرة أيام، فمن الطبيعيّ حينها أن ننهار في الشهر الثاني من الحرب! لذا لا ينبغي جعل الذهن حسّاساً تجاه مرور الزمن، فنحن عبيد لله، وتكليفنا من ناحية الزمن هو: «ما دمنا أحياء»، لا: «حتى يتحقّق النصر الظاهريّ». وبالتالي، ينبغي أن نسأل: «ما هو تكليفنا الآن؟» فربّما تكون مدّة الحرب أطول من أعمارنا، ولا شكّ في أنّ الحزن والقلق لعشرين سنة قادمة مثلاً سوف يكون مانعاً من أداء واجبنا اليوم!»¹.

من هنا سعى القرآن الكريم وأولياء الدين لأن ينبّهونا إلى حقيقة كون الدنيا دار ممّرة، والآخرة هي دار المقرّ. عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال: «الدُّنْيَا دَارٌ مَمَرٌ لَا دَارٌ مَقَرٌّ»². وفي دار الممرّ لا ينبغي التوقّف، حتّى بلوغ المقصد. ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾³.

ولذلك يدعو الإمام الخامني (قدّس سرّه) لمواجهة الخوف بالعمل والمقاومة، فيقول: «الخوف والحزن آفتان عظيمتان بالنسبة لأيّ شعب، وأيّ جماعة وأيّ إنسان. يُمكن إزاحة هاتين الآفتين من خلال البشارة القرآنية؛ فنحن إن قاومنا تُزاح هاتان الآفتان. ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾»⁴؛ هكذا هي المقاومة أيضاً. إذا رغبت في إزاحة الخوف والحزن عن أنفسكم، عليكم بانتهاج الصمود والمقاومة»⁵.

ثلاثة مبادئ ذهبية

المبدأ الأوّل: التقوى مفتاح الشجاعة

فإنّ منشأ الخوف هو استشعارُ الخطر المحدث، فإذا أدرك العبدُ بوجدانه أنّه مرتبطٌ بقوةٍ قاهرةٍ ووجودٍ إلهيٍّ مُهيمنٍ على كلّ خطر، اضمحلّ الخوفُ من قلبه، وثبتت الشجاعةُ في جنانه.

إنّ المنطق الإسلاميّ يقوم على هذا المبدأ الراسخ، وهو أنّ المؤمن يمتلك أقوى سلاحٍ وهو ارتباطه بالله سبحانه وتعالى، وهذا ليس مجرّد شعارٍ خاوٍ، فهو القائل سبحانه: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا

¹ اليزدي، محمّد تقى، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 20.

² الشريف الرضي، محمّد بن الحسين، نهج البلاغة، الحكمة 133.

³ سورة غافر، الآية 39.

⁴ سورة فصلت، الآية 30.

⁵ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2020/09/21.

يُؤَدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ»¹. وهو تعالى الذي يُسَخِّرُ ما في الكون ليكون سلاحًا بين أيدينا.

من هنا، يقول الشهيد مطهري (قدس سرّه) في وصفه لحال الإنسان الإلهي: «يرى الإلهي أنّ العالم يقف إلى جانب أنصار الحق والعدل والخير والرسالة الحقّة، ويختلف موقفه هذا مع أنصار الظلم والعدوان ومع الكافرين، لأنّه يعتقد أنّ إله الكون قادر على التصرف فيه ليصبّ في صالح المؤمنين»².
وطالما أنّ هذا السلاح بأيدينا حاضرٌ فلا يبقى مجال للخوف؛ فالتقوى هي المنطلق الحقيقي للشجاعة، وحتى لو تأخّر النصر الإلهي لحكمة إلهية، إلّا أنّ القوي المطلق حاضر وناظر ومعنا في كلّ خطوة.
يقول الشيخ اليزدي (قدس سرّه): «كلّما زاد الإيمان والتقوى، قلّ الخوف من غير الله، وازداد الشوق إلى الأهداف الإلهية»³.

ويقول الإمام الخامنئي (قدس سرّه): «يقول القرآن الكريم: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. حسنًا، ما الذي تعنيه العاقبة؟ خواتيم الأمور ستكون من نصيب المتّقين؛ وخواتيم الأمور في الدنيا ستكون من نصيب المتّقين، وخواتيم الأمور في الآخرة أيضًا ستكون من نصيب المتّقين، وإذا كان من المقرّر أن تنتصر المواجهات فإنّ ذلك سيكون من نصيب المتّقين، وإذا أردتم الانتصار على العدو في ميدان الحرب يجب أن تكونوا من المتّقين»⁴.
ولنأخذ هذه القاعدة التي قدّمها لنا الإمام الخميني (قدس سرّه): «إذا توقّرت التقوى، فلا خشية من أيّ شيء»⁵.

المبدأ الثاني: الإنفاق دواء التعلّق

إنّ منشأ كثير من مخاوفنا يرجع إلى شدّة تعلّقنا الدنيويّة، وحين يُروّض المرء نفسه على الإنفاق ممّا يحبّ يخفّ وطء التعلّق في قلبه، وحينئذٍ ينتفي الخوف من فقد ذلك الشيء وزواله؛ فإذا كان الإنسان وجلاً من ضياع المال، ثمّ درّب نفسه على بذله في سبيل الله، انحلّ ارتباطه به، وزال عنه خوف فقده، واستوى عنده بقاء المال وفناؤه، وقسّ على ذلك سائر التعلّقات.

يقول الشيخ اليزدي (قدس سرّه): «لكي لا نخاف من فقدان المال، العلاج العمليّ هو الإنفاق وقطع التعلّق بالمادّيات في هذه الأيام نفسها»⁶.

ومن هنا يؤكّد الشهيد مطهري في كتبه المختلفة على أنّ فلسفة الإنفاق ليست اجتماعيّة فقط، بل هي فردية أيضًا، وعلى رأس آثار الإنفاق «صناعة الإنسان»⁷.

¹ سورة آل عمران، الآية 125.

² مطهري، مرتضى، المدد الغيبي، الصفحة 20 و21.

³ اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 20.

⁴ من كلمة له (قدس سرّه) بتاريخ 2019/05/06.

⁵ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 6، الصفحة 250.

⁶ اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 21.

⁷ مطهري، مرتضى، آشنائي با قرآن، الجزء 2، الصفحة 68.

المبدأ الثالث: العبودية المطلقة

بما أننا عباد الله تعالى، فالشعار الدائم الذي ينبغي أن يحكم سلوكنا هو: «القول ما يقوله الله»؛ فإن أمرنا بالتقدم تقدّمنا، وإن أمرنا بالإسراع أسرعنا، وإن أمرنا بالتوقّف وقفنا، وإذا استبطأنا النصر رجعنا إلى أنفسنا بالمراقبة والمحاسبة لنرى مدى استيفائنا لشروط النصر. فالأمر كلّ بيد الله سبحانه، وكلّ شيء ملك له.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «فليكن شعارنا في الميدان: القول ما يقوله هو، إن قال تقدّموا نتقدّم، إن قال أسرعوا نُسرّع، وإن قال قفوا نقف»¹.

ويقول الإمام الخامني مستلهماً من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾² ما يلي: «إنّ دأب العدو هو بثّ القلق، تلك هي مهمته: إنّ الناس قد اجتمعوا ضدّكم فاخشوهم. أرادوا أن ينشروا الخوف بينهم، فزادهم إيماناً. لم يتولّد هذا الخوف، بل تعزّز دافعهم وقويّ إيمانهم أكثر، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾»³.

في هذه الحالة يرتقي الإنسان إلى مرتبة «اللامبالاة التوحيدية»؛ وهي الحالة التي تجسّدت بأجلى مظاهرها في مسلك الإمام الخميني (رضوان الله عليه) إبّان عودته التاريخية بالطائرة من باريس إلى طهران؛ إذ كانت كلّ الاحتمالات قائمة: من إسقاط الطائرة والموت، إلى القتل عند النزول، أو الاستقبال الجماهيريّ الحاشد، وحين سُئل في تلك اللحظات المصيرية عن شعوره، أجاب بكلمته الشهيرة: «لا شيء»؛ وتلك هي اللامبالاة التوحيدية المحضة الناشئة من السير وفق ما أَراده الله، فإن اقتضت مشيئته سقوط الطائرة فلتسقط، وإن قضت بالقتل فليكن، وإن تعلّقت بقيادة الثورة وإنجاز النصر فليكن.

ولنستذكر هذا الحوار الذي دار بين الإمام الحسين (عليه السلام) وابنه عليّ الأكبر (عليه السلام) في الطريق إلى كربلاء: وبينما يسيرون إذ سَمِعَ الحسين يقول: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، والحمد لله ربّ العالمين» وكرّره. فسأله عليّ الأكبر عن استرجاعه، فقال: «إِنِّي خَفَقْتُ بِرَأْسِي، فَعَنَّ لِي فَارِسٌ وَهُوَ يَقُولُ: الْقَوْمُ يَسِيرُونَ وَالْمَنَایَا تَسْرِي إِلَيْهِمْ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ أَنَفَسْنَا نُعِيتَ إِلَيْنَا». فقال عليّ الأكبر: «لَا أَرَاكَ اللَّهُ سَوْءًا، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟» قال: «بلى والذي إليه مرجع العباد»، فقال: «يا أبت، إذن لا نبالي أن نموت محقّين». فقال (عليه السلام): «جزاك الله من ولد خير ما جرى ولدًا عن والده»⁴.

¹ اليزدي، محمّد تقی، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 21.

² سورة آل عمران، الآية 173.

³ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2019/02/08.

⁴ المرقم، عبد الرزاق، مقتل الحسين، الجزء 1، الصفحة 196.

الخلاصة

إذا كنت لا تريد أن تصاب بالتعب والإرهاق، فأنسَ المستقبل وفكّر في «تكليف اللحظة»، وإذا كنت لا تريد أن تخاف، فاعلم أنّ الله هو مسبّب الأسباب، واستمع إلى الأخبار من لسان القائد والوليّ. الانتصار ليس الوصول إلى الهدف الظاهريّ، بل هو الثبات في طريق العبوديّة.

السؤال الثالث: ما هي طرق زيادة الصبر والثبات؟

شرح السؤال:

قد تشتد الظروف علينا في أي لحظة وتصبح أصعب من أي وقت مضى. وحينها، حتى إذا كنا مؤمنين بانتصار جبهة الحق، ولم نكن نخاف من الأخطار ولا نخشى على أنفسنا ولا على جبهة الحق، فإن الصبر والثبات والتحمل في الظروف غير العادية - كانقطاع الماء، وانقطاع الكهرباء، والنزوح، وغيرها - سوف يكون أمرًا شديد الصعوبة، فماذا نفعل حتى لا نصل وسط هذه الضغوط المعيشية والحياتية القاسية إلى «انهيار نفسي»، وماذا نفعل كي لا تنكسر إرادتنا؟

الجواب:

لكي لا ننكسر أمام انقطاع الماء والكهرباء والنزوح والضغوط المعيشية، يجب أن نمرّ عبر المحطات الخمس التالية:

إعادة تعريف الصبر: الصبر يعني المقاومة

إنّ ما يمنعنا في كثير من الأحيان من الصبر هو توهم معنى خاطئ له! إذ حينما نتساءل: «كم علينا أن نصبر؟» يتبادر إلى أذهاننا أننا نسأل: «كم علينا أن نتحمل من الضرب والأذى دون القيام بأي رد فعل؟!» ومرد ذلك إلى تصوّر خاطئ لمفهوم الصبر. فإذا افترض الإنسان نفسه واقفًا ومكثلاً، وهناك أشخاص ينهالون عليه بالضرب وهو لا يحرك ساكنًا، فمن الطبيعي جدًا حينئذ أن يستاء ويسأل: «إلى متى سأتحمل؟» لأن الإنسان بطبيعته لا يحب أن يكون في موقع المنفعل المتلقّي للألم.

ولذلك ينبغي أن تنتبه إلى أنّ هذا المعنى من الصبر ليس هو الصبر المطلوب إسلاميًا، بل حقيقة الصبر شيء آخر، وإذا أدركنا هذه الحقيقة، تغيرت نظرنا إلى الصبر تمامًا.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «الصبر ليس مجرد عدم الشكوى أو عدم الجزع، بل إنّ حقيقته هي «المقاومة»، والفرق بين الإنسان والحيوان يكمن في «الالتزام» و«المقاومة»، فالحيوان تابع لغريزته وراحته، أمّا الإنسان فيبلغ الكمال من خلال مقاومة الراحة»¹.

فالفارق الجوهرى بين الإنسان وسائر الكائنات الحيّة هو أنّ الإنسان هو الموجود الذي يتكامل عن طريق التحمل المقترن بالمقاومة؛ ومن هنا يكتسب التحمل قيمته حين يكون ممتزجًا بروح المقاومة، أمّا مجرد التحمل الخالي من المقاومة فلا يورث كمالًا ولا يبلغ بصاحبه غاية، والمقاومة في جوهرها تعني: التحمل الواعي المقترن بالسير الحثيث نحو الهدف المنشود.

يقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه): «عادةً ما يفسّرون الصبر بمعنى تحمّل المصاعب والمكاره». ثمّ يعتبر أنّ هذا التفسير مخالف للدلالات الصريحة للآيات القرآنية والروايات الشريفة، وأنّا إذا أردنا أن نعرّف الصبر على طبق ما

¹ اليزدي، محمد تقى، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 24.

تفيدة الآيات والروايات، فإننا نخرج بالتعريف التالي: «الصبر هو مقاومة السالك لطريق التكامل في مقابل الدوافع الباعثة على الشرّ والفساد والانحطاط»¹.

من هنا يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «عندما تأتي المشقة، فبدلاً من أن تقول: «أنا أتحمل»، قل: «أنا أقاوم»، لأن كلمة المقاومة تمنح الإنسان «هويةً جهاديةً»، وتمنعه من الشعور بأنه ضحية»².
باكتساب هذه الهوية الجهادية، ينظر الصابر إلى نفسه كجندٍ في الجيش الإلهي والمشروع الإلهي العظيم، فإذا كان في منزل النروح أو في خيمة أو في أيّ مكان، يدرك أنّ مقاومته لقلّة المال أو شحّة الطعام أو فقدان المسكن المريح، تمثل جزءاً من إسقاط المشروع الاستكباري، فيكون لسان حاله: إنني أتحمل هذه المشاق لتتكسر شوكة العدوّ وتُهزم إسرائيل، ولئلا يُقال إنّها أذلت أحداً منا، أو أنّ مجتمع المقاومة قد انكسر وتخلّى عن خياره وفقد الأمل في دحر العدوان.

وهذا النوع من الصبر هو الذي كان يسمّيه الإمام الخميني (قدّس سرّه) بـ«الصبر الثوري» ويدعو الشعب إليه³.

قبول قانون «الكبد» (الألم الذاتي للدنيا)

إنّ جزءاً من عدم قدرتنا على الصبر في وجه الآلام يعود إلى توقّع خاطئ نحمله ونسير على أساسه في هذه الحياة، وهو توهم أنّ الأصل في الدنيا هو أن نكون في راحةٍ ورخاء، وأنّ فترة المشقة وعدم الراحة هي الاستثناء؛ وهذا التّصوّر المترسّخ يدفعنا إلى انتظار نهاية الأزمة سريعاً، في حين أنّ المشقة بطبيعتها ظرف يلازم الحياة، فتتحمل قليلاً ثمّ نصل إلى مرحلةٍ تصبح فيها عاجزين عن الاستمرار.

هذه المشكلة ناتجة عن خللٍ في فهمنا للدنيا ولطبيعة هذا الموطن الذي نحن فيه، مع أنّ الله تعالى في القرآن الكريم قد نبّهنا في موارد متعدّدة إلى طبيعة العالم الذي نعيش فيه حتّى لا نحمل تصوّراتٍ خاطئة نحاكم الواقع على أساسها؛ فالإنسان لم يأت إلى هذا العالم إلّا ليختبر ويتفاعل مع ما فيه من خيرات وشُرور، وذلك وفق قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾⁴. وبالتالي، ليس من الحكمة توقّع أنّ الأصل هو الراحة.

يقول الإمام الخميني (قدّس سرّه): «إنّ كلّ نعمة من نعم هذا العالم محفوفة بأنواع من العذاب والآلام والمحن»⁵.
ويقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «يحدث «الانهيار النفسي» عندما تتوقّع «الراحة الدائمة». ولكن وفقاً لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾⁶، فإنّ الدنيا بذاتها وطبيعتها ممتزجة بالألم والمشقة. فحتّى المرفّهون يعانون من آلام أعمق من التي يعاني منها غيرهم. من هنا، فإنّ الإنسان الذي يعلم أنّ الوصول إلى «قمة

¹ انظر: الخامنئي، علي، بحث حول الصبر، الصفحات 21 إلى 27.

² اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 24.

³ انظر: الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 8، الصفحة 308.

⁴ سورة الأنبياء، الآية 35.

⁵ الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، الصفحة 334.

⁶ سورة البلد، الآية 4.

الكمال» لا بدّ فيه من عبور «الصخور الصعبة»، لا يُفاجأ عند رؤية الصخور. فالاستعداد للمشقة يخفف مرارتها»¹.

ويقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه): «كونوا مطمئنين. فهذه الأمور التي ترونها ليست إلّا حوادث طبيعية في طريق شاق نحو القمّة. ولا ينبغي لأحد أن يتوقّع أنّه إذا أراد الصعود إلى قمّة «توچال» أو قمّة «دماوند»، فلن يجد في الطريق حفرة، أو صخرة، أو رجًا، أو دخانًا، أو غازًا؛ هل هذا ممكن؟ لكننا نمضي قُدُمًا، نمضي قُدُمًا؛ وهذا هو المهم. فلا تقلقوا أبدًا؛ فوجود هذه الحوادث أمر طبيعي. بل لو لم تكن موجودة لكان موضع العجب»².

ويقول (قدّس سرّه) أيضًا: «لا تنفك حياة الإنسان عن الكون في معرض الأحداث والبلايا المؤسفة، ولا مفر من هذا الأمر [...] وهذه العبارة المعروفة والمنسوبة لمولى المتقين (عليه السلام)، وهي قوله عن الدنيا أنّها «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ»³، أي إنّها دار محاطة بالامتحانات والبلايات، ناظرة إلى هذه الحقيقة»⁴.

ولنتذكّر دائمًا كلام الإمام الباقر (عليه السلام): «الْجَنَّةُ مُحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ وَالصَّبْرُ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»⁵.

معادلة النصر = الصبر + التقوى

من الأمور التي ينبغي أن لا نغفل عنها أنّ القرآن الكريم حينما حدّثنا عن «النصر» ربطه مباشرة بـ«الصبر». فالنصر في المنطق الإلهي لا يحصل بمجرد الحركة، بل المطلوب هو التحرك المقرون بالتحمل المقاوم، أي: الصبر، وحينئذٍ يتنزّل النصر الإلهي، ومن الخطأ تمامًا ترقّب نزول النصر قبل استيفاء مرحلة الصبر، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالصَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾⁶.

يقول الإمام الخميني (قدّس سرّه) في رسالة له قبل انتصار الثورة الإسلامية باثني عشرة سنة: «فليتواصى السادة الأفاضل في محافلهم بالحق والصبر في سبيل الحق. وإنّي أطمئنكم بالنصر وبغلبة الحق على الباطل، إذ لا يمكن الوقوف بوجه أحاسيس شعب كامل، والمهم هو الامتحان الإلهي: والله لتُغربلن غربة»⁷.

ويقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ النصر الإلهي - بما فيه من طمأنينة القلب والمدد الغيبي - ليس أمرًا ثابتًا ودائمًا بلا شروط، بل هو مشروط. النصر الإلهي يتنزّل ما دام الصبر والتقوى مستمرين: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا

¹ اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 24 و 25.

² من لقاء له (قدّس سرّه) مع الجريح علي خوش لفظ بتاريخ 2017/01/05.

³ الشريف الرضي، محمد بن الحسين، نهج البلاغة، الخطبة 226.

⁴ الخامنئي، علي، بحث حول الصبر، الصفحة 72.

⁵ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الجزء 2، الصفحة 89.

⁶ سورة البقرة، الآية 214.

⁷ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 2، الصفحة 128.

وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ¹»².

ومن هنا يقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه): «يُحَلِّلُ أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته القاصعة تطوّر حياة المستضعفين في التاريخ وانتصارهم على الجبايرة ونجاح أفكارهم الشريفة، فيقول: «حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جَدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مُحِبَّتِهِ وَالْإِحْتِمَالِ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرْجًا، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذَّلِّ وَالْأَمْنِ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مَلُوكًا حَكَّامًا، وَأَثَمَةً أَعْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأُمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ». هذه سَنَةٌ تَارِيخِيَّةٌ، وَلِذَا سَتَكُونُ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ إِلَى الْأَبَدِ»³.

ولذا يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «لَا يَعْدُمُ الصَّبُورُ الظَّفَرُ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ»⁴.

مقارنة التألم

من الأمور التي ينبغي أن نسأل أنفسنا عنها دائمًا: صحيح أننا نصبر، ولكن أليس عدونا يصبر أيضًا؟! هل يُعَقِّلُ أن يكون عدونا صابِرًا وذا نَفْسٍ طَوِيلٍ، بينما نحن نفتقد الصَّبْرَ ولا نملك هذا النَّفْسَ؟! هل يُعَقِّلُ أن يكون هو متَأَلِّمًا ومتَحَمِّلًا ونحن نتألم ولا نتحمّل؟ فكما أننا نتألم فهو يتألم أيضًا. ليس هذا فحسب، بل ثَمَّةُ أَمْرٍ يُفْتَرَضُ أن يشكّل عاملاً إضافيًا لدينا مفقود عنده، وهو ما أخبرنا عنه الله تعالى بقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾⁵. فهو يتحمّل ومصيره الشقاء، بينما نحن نتحمّل ومصيرنا في نهاية المطاف النصر في دار الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة؛ فهل يصحّ بعد ذلك أن يكون تحمّله أعظم من تحمّلنا؟!

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «استنادًا إلى القرآن الكريم، كِلَا الطَرَفَيْنِ فِي الْحَرْبِ يَتَأَلَّمَانِ: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾⁶. فالعدوُّ أيضًا يتألم ويعاني، وهو أيضًا يتشرد! ولكن الفرق هو أنه: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾⁷. ولذلك: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾⁸. إنّ تذكّر الثواب الحقيقي والمقامات الأبدية عند الله، يجعل مشقّات الدنيا المؤقّتة تبدو لا قيمة لها أمام لقاء الله»⁹.

ويقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه): «في مواجهة التحدّيات التي يخلقها العدو، يتحمّل الإنسان مشقّاتٍ وآلامًا؛ غير أنّ القرآن يقول لنا: لا تخافوا من هذه المشقّات: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾؛ فإن كنتم

¹ سورة آل عمران، الآية 125.

² اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 25.

³ الخامنئي، علي، بحث حول الصبر، الصفحات 39 إلى 40.

⁴ الشريف الرضي، محمّد بن الحسين، نهج البلاغة، الحكمة 153.

⁵ سورة النساء، الآية 104.

⁶ سورة النساء، الآية 104.

⁷ سورة النساء، الآية 104.

⁸ سورة النساء، الآية 104.

⁹ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 26.

تتألمون من أذى العدو، فإنّ العدو أيضاً يتألم بسبب مقاومتكم وصبركم وبسالتكم، ولكن مع فارق واحد: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ فالأفق أمامكم أفقٌ مشرقٌ وواضح، أمّا أمام العدو فليس كذلك»¹. ولذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾².

خمس حلول عملية لمنع الانهيار النفسي

الحل الأول: نظام «ترك المشتبهات»

من الأمور التي تساعد على الصبر وتمنع الانهيار عند اشتداد البلاء هو أن يُعوّد الإنسان نفسه - لا سيّما في المراحل الحساسة والمصيرية التي يمرّ بها - على ترك كثيرٍ من المشتبهات؛ حتّى إذا فقّدها لم تكن الصدمة قاسيةً عليه. فالأمور التي كان الفرد متعلّقاً بها في السابق، ينبغي عليه أن يسعى لتخفيف علقته بها تدريجاً؛ بحيث إذا سُلّبت منه بغتةً لا ينهار.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «قبل أن تُفرض عليك المشقّة، اترك بنفسك بعض مظاهر الراحة طوعاً ومارس تمرين الزهد. فمن لم يعتد على الماء البارد والفرش الناعم، لن ينهار في النزوح»³.

من هنا نجد الشهيد مرتضى مطهري في بحوث «معرفة الإنسان في القرآن» يتحدّث عن مسألة الزهد بوصفها حاجة لدى كلّ إنسان بمعزل عن كونه متديّناً أو غير متديّن، وذلك لتحقيق «حرّيّة» من «أسر الحاجات الطبيعيّة»، فيحدّر من الاعتیاد على اللذات المادّيّة، أو على نوع خاصّ من الطعام أو السرير، وذلك من أجل حفظ أمور أرفع وقت الحاجة، من قبيل «العزّة والكرامة الإنسانيّة»⁴.

ومن هنا يقول الإمام الخميني (قدّس سرّه): «من النتائج الكبيرة والثمار العظيمة لتحرّر الإنسان من عبوديّة النفس، الصبر في البلايا والنوائب»⁵.

الحل الثاني: ذكر «الله يرى»

وهو ذكرٌ قلبيّ يُوصي به الشيخ اليزدي (قدّس سرّه)، وهو حالةٌ قلبيّةٌ مفادها أن يحاول الإنسان أن يستحضر في قلبه حالة نبيّ الله إبراهيم (عليه السلام) حين وُضِعَ في المنجنيق ليُرمى في النار فما اكرث ولا اضطرب، والعلّة في ذلك استحضاره أنّ «الله يرى»⁶. فقد روي أنّه حينما رُمي إبراهيم (عليه السلام) من المنجنيق نحو النار: «تلقّاه جبرئيل في أهواءٍ فقال: هل لك من حاجة؟ فقال أمّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل. فاستقبله ميكائيل فقال: إنّ أردت أحمّدت النار فإنّ خزائن الأمطار والمياه بيدي. فقال: لا أريد. وأتاه ملك الرّيح فقال: لو

¹ من لقاء له (قدّس سرّه) مع عوائل شهداء محافظة سمنان بتاريخ 2006/11/09.

² سورة الزمر، الآية 10.

³ اليزدي، محمد تقی، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 26.

⁴ انظر: مطهري، مرتضى، انسان شناسی قرآن، الصفحات 276 إلى 281.

⁵ الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، الصفحة 345.

⁶ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾، سورة العلق، الآية 14.

شِئْتَ طَيْرْتُ النَّارَ. قَالَ: لَا أُرِيدُ. فَقَالَ جَبْرِئِيلُ: فَاسْأَلِ اللَّهَ. فَقَالَ: حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي»¹.

يقول الشيخ اليزدي في شرح هذه الحالة: «علمك بأن الله يرى مقاومتك هو أعظم مسكن نفسي»². وكذلك أيضاً يجب استحضر صنيع الإمام الحسين (عليه السلام) في أشدّ المواقف، حتى روي أنّه حينما رمى حرملة بن كاهل الأسدي سهمًا ذبح ابنه عبد الله الرضيع وهو في حجره، تلقى دمه حتى امتلأت كفه، ثم رمى به إلى السماء وقال: «هُوَ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِيْنُ اللَّهِ»³.

وهنا يقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه): «أيُّ مشاعر هي التي تدفع الإنسان إلى أن يأخذ طفلاً رضيعاً إلى ساحة الحرب؟! ثمّ حين قُتل، قال الإمام الحسين (عليه السلام): «إِنَّ ذَلِكَ بَعِيْنُ اللَّهِ». أي إنّ ما يسليني هو أنّ الله يرى هذا. وهذا في حدّ ذاته مصدرُ عزاءٍ وسلوى لكلِّ إنسانٍ مؤمنٍ بالغيب وما وراء هذا العالم»⁴.

الحلّ الثالث: خدمة الآخرين

إنّ جزءاً كبيراً من عجزنا عن الصبر والتحمّل ناشئ من حصر المرء نظره في دائرة آلامه الخاصّة، فيصبح للوجع مركزيّة مهيمنة على وعيه؛ ولكنّه لو حوّل ناظره إلى آلام الآخرين واستشعر مسؤوليّة معונاتهم، فكم ستضعف حدة ألمه، وكم سيغدو أقدر على الثبات والتحمّل! ومن هنا يدعو الشيخ اليزدي (قدّس سرّه) في المنعطفات الحرجة إلى ترك التفكير بـ«أنا» والانتقال إلى التفكير بـ«نحن»، وحينئذ يتوزّع ثقل الألم؛ فإذا انتهج كلّ فردٍ هذا المسلك انتفتت المركزيّة الفرديّة للألم وحلّ محلّها التوجّه لآلام المجموع، فلا يتفوق المرء على ذاته متسائلاً عن حدود طاقته في التحمّل، بل ينصرف همّه إلى إسناد الناس ورفع الضائقة عنهم؛ ومقتضى الاشتغال بالخارج وحمل همّ المعونة أن تتلاشى المصاعب الذاتيّة وتغيب عن شاشة الوعي بدلاً من مجرد معاناتها وتكلّف تحمّلها. يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «في الظروف الصعبة، بدلاً من التفكير في معاناتك الخاصّة، حاول تخفيف معاناة من حولك، فهذا يخرجك نفسياً من «مركزيّة الألم»»⁵.

الحلّ الرابع: مقارنة التكلفة

فدائماً ينبغي أن يكون لدينا موازنة ومقارنة بين كلفة الاستسلام وكلفة الاستمرار في المواجهة. وهذه رسالة بالغة الأهميّة لمجتمعنا، فإنّ أيّ إنسانٍ حينها يكفيه أن ينطلق من إنسانيّته وفطرته السليمة ليقول: نصبر ونتحمل، ولا ننحدر إلى ذلّ الهزيمة بما يكتنفه من هوانٍ مادّيٍّ ومعنويٍّ، وتفصيل هذا المبحث سيُيسّط في سؤال مستقلّ إن شاء الله.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «ذكّر نفسك باستمرار أنّنا إذا لم نصبر اليوم، فإنّ تكلفة «الذلّ والهزيمة»

¹ المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 68، الصفحة 155.

² اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 27.

³ المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 45، الصفحة 46.

⁴ من جلسة تفسيريّة له (قدّس سرّه) بتاريخ 1991/10/16.

⁵ اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 27.

ستكون أشدّ بكثير من تكلفة «النزوح والجوع وانقطاع الماء والكهرباء»¹.

ويقول الإمام الخامني (قدّس سرّه): «لا ينبغي للمؤمن، تحت أيّ ظرفٍ من الظروف، أن يقبل بالذلة. ألا ترون أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) قال: «هَيْهَاتَ مِنَّا الدِّلَّةُ»، و«يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ»؛ أي إنّ الله يأبى لنا أن نقبل بالذلة. فذلة الاستسلام أمام الكفار، وذلة الرضوخ لضغوطهم وإملاءاتهم، كلّ هذه ألوانٌ من الذلة لا يجوز للمؤمن أن يقبل بها»².

ويقول الإمام الخميني (قدّس سرّه) موجّهاً كلامه للمقاومة الفلسطينية: «فمما لا شكّ فيه واستناداً لطريقة الإسلام في التفكير أنّ الموت أفضل من الحياة المذلة، وعليه فليس أمامنا حالياً سوى مواصلة الجهاد بكافة طاقاتنا وإمكاناتنا المتاحة لتحقيق العزة والكرامة التي كانت نصيبنا طوال تاريخ الإسلام العظيم لأجيالنا القادمة»³.

وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَوَّضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهَا وَلَمْ يُفَوِّضْ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِيلًا، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁴ فَالْمُؤْمِنُ يَكُونُ عَزِيزًا وَلَا يَكُونُ ذَلِيلًا. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَعَزُّ مِنْ الْجَبَلِ، إِنَّ الْجَبَلَ يُسْتَقَلُّ مِنْهُ بِالْمَعَاوِلِ وَالْمُؤْمِنُ لَا يُسْتَقَلُّ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ»⁵.

الحلّ الخامس: التمسك بنموذج الماضين

فكم من قصّة ساقها الله جلّ وعلا في القرآن الكريم عن الأمم السالفة ومحنها وما عاتته من مصاعب؟! ثمّ حينما نعطف إلى التاريخ نجده حافلاً بسيرة الماضين من النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) وعليّ وفاطمة والحسن والحسين وسائر المعصومين (عليهم السلام). من هنا ينبغي علينا أن نعود إلى سيرة هؤلاء العظماء، وعلى رأسهم الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) الذي يقول: «مَا أُودِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُودِيتُ»⁶، وكذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي كانت سنيّ حياته محفوفةً بالشدة والبلاء، بدءاً من حادثة سنّه في فجر الدعوة والحصار في شعب أبي طالب، ثمّ مرحلة الجهر بالدعوة والهجرة، وصولاً إلى إرساء قواعد الدولة في المدينة المنورة وخوض غمار الحروب، ثمّ تجرّعه الغصّة الكبرى بعد ارتحال الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله): «فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدْى، وَفِي الْحَلْقِ شَجَا»⁷، ثمّ مكابدة خمسٍ وعشرين سنّةً من الصبر، تلتها نحو أربع سنواتٍ ونصف إلى خمس سنواتٍ من الحروب، وانتهاءً بختام مسيرته المباركة بالشهادة؛ فهذا هو النموذج الشاخص والقُدوة الماثلة أمامنا.

¹ البزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 27.

² من كلام له (قدّس سرّه) بتاريخ 1983/09/01.

³ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 2، الصفحة 186.

⁴ سورة المنافقون، الآية 8.

⁵ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الجزء 5، الصفحة 63.

⁶ الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي، الجزء 2، الصفحة 235.

⁷ الشريف الرضي، محمد بن الحسين، نهج البلاغة، الخطبة 3.

وكذلك نرجع إلى الكتاب الكريم، فنرى ما الذي أوصل داود (عليه السلام) إلى ما بلغه من التمكين، فلا نجد إلا الصبر والثبات. هذه السيرة كلّها ماثلة بين أيدينا لكيلا نقع في شباك التراجع وإعادة النظر في خياراتنا المبدئية بذريعة عظم التكلفة وصعوبة الطريق، بل ينبغي النظر إلى أولئك الذين التزموا الخيارات ذاتها فبلغوا الغايات المنشودة التي أسسنا لها في صدر هذا البحث؛ ليتجلّى لنا عِظَم قيمة الصبر ومكانته.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «استحضر دائماً معاناة المؤمنين في شعب أبي طالب أو الحروب التي خاضوها في الماضي، وكيف انتصروا وهم في ذروة الحرمان ومحدودية الإمكانيات، فإنّ ذلك يزرع في النفس الصبر والثبات والاقتدار»¹.

ويقول الإمام الخامني (قدّس سرّه): «في صدر الإسلام، لو لم يثبت النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) على كلامه، ولو لم يقاوم كلّ تلك التيارات المعارضة، فمن المؤكّد أنّ نشيد الإسلام لم يكن ليتجاوز جدران بيته الأربعة، ولكان مصير شعار «لا إله إلاّ الله» النهاية من نقطة البداية. الشيء الذي حفظ الإسلام هو الصبر، ولو لم يصبر أولياء الله وأنبياءه العظام، لما كان اليوم أيّ خبر أو أثر لأصل التوحيد»².

ويقول (قدّس سرّه) أيضاً: «في الصراع بين الحقّ والباطل، سيكون النصر حليف الحقّ، إلّا أنّ جبهة الحقّ تدفع الثمن أيضاً. في الأحداث التي عشناها، فقدنا شخصيّات كبيرة؛ فقدنا شخصيّات إيرانيّة ولبنانيّة قيّمة. كانت هذه مصيبة لنا، كما في قضية موسى؛ فهناك أيضاً كان الأمر على هذا النحو.

عندما جاء النبيّ موسى إلى مصر، لم تكن حياته حياة هادئة ومريحة؛ بل كان هو وبنو إسرائيل يعيشون في أشدّ الظروف قسوة. قالوا: ﴿أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾³. قال بنو إسرائيل لموسى: قبل أن تأتي أنت لتقف في مواجهة فرعون، كنّا نتعرّض للتعذيب، والآن بعد أن جئت، ما زلنا نتعرّض للتعذيب! فقال لهم النبيّ موسى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُوا﴾⁴ أي: استعينوا بالله، واطلبوا العون من الله تعالى، واصبروا، واثبتوا، وستستقيم الأمور؛ وقد استقامت فعلاً.

إنّ أولئك الذين كانوا يشكون ويقولون: إنّنا نتعرّض للتعذيب، رأوا بأعينهم فرعون والفرعونيين وهم يغرقون في الماء بكلّ ذلّ وهوان، وهلكوا، ولم يبقَ من قدرتهم وسلطانهم شيء؛ ولم يبقَ إلّا أجسادهم أمام أعين الناس، لتكون عبرة. انظروا إلى الأحداث التي تقع، وإلى الصعوبات والمشاقّ، من هذا المنظور، استعينوا بالله تعالى، واطلبوا منه العون، واصبروا، ولا شكّ أنّ عاقبة هذا الصمود والثبات ستكون هزيمة الأعداء، وهزيمة النظام الصهيونيّ الخبيث والفاقد والفاسق»⁵.

¹ اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 27.

² الخامني، علي، بحث حول الصبر، الصفحات 38 إلى 39.

³ سورة الأعراف، الآية 129.

⁴ سورة الأعراف، الآية 128.

⁵ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2025/03/21.

الخلاصة

فلنتأمل دائماً في كلام الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيْمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الرَّأْسُ ذَهَبَ الْجَسَدُ، كَذَلِكَ إِذَا ذَهَبَ الصَّبْرُ ذَهَبَ الْإِيْمَانُ»¹. ولنتذكر أنّ الانتصارات تستمر ما دام الصبر والتقوى مستمرين، فإذا نقص شيء منهما، نقص معه أيضاً مدد النصر الإلهي.

¹ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الجزء 2، الصفحة 87.

السؤال الرابع: العودة إلى الظروف الطبيعية، أم استمرار هذا الوضع حتى الظهور؟

شرح السؤال:

عندما نتصوّر للحظة أنّ الحرب قد تنتهي غداً، وأنّ حياتنا ستعود إلى حالتها الطبيعية والهادئة كما كانت في السابق، نشعر أنّ قلوبنا تشتاق إلى ذلك وتحنّ إلى ذلك الهدوء. ولكن توجد هنا ازدواجية جدية تؤرق ضمائرنا: إذا وصلت الحرب إلى خواتيمها، وانتهت فترة الاضطراب هذه، فقد لا يكون هناك ظهور قريب لصاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

وهنا قد نسأل أنفسنا: هل نحن حقاً نريد الظهور الشريف؟ أم أننا فقط نريد حياة خالية من المتاعب؟ وكيف يمكن لنا أن نقوي حبّ الظهور الشريف في داخلنا إلى درجة أن نقول من أعماق قلوبنا في دعاء العهد: «العجل العجل يا مولانا يا صاحب الزمان»، دون أن نكذب على أنفسنا؟!

الجواب:

إنّ بعضنا يخاف في لا وعيه من الظهور، لأنّه يرى فيه نهايةً لـ«النظام المأنوس في حياته». ولكي يكون قولنا «العجل» صادقاً، يجب حلّ هذه العقدة، وذلك بالالتفات إلى النقاط الأربع التالية:

تصحيح منطق اللذة

أول مسألة ينبغي أن نعالجها في هذا البحث هي: «الخطأ في الحسابات المرتبطة بمنطق اللذة». الحياة الهانئة والهادئة التي كنّا نعيشها فيها نعم ولذات بلا شك، ولكنّ المسألة تكمن في «المقايضة»؛ لأنّنا في أيّ لحظة نقيس هذه النعم واللذات بتلك النعم واللذات الموجودة في الحياة في ظلّ الظهور المبارك لصاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه)، سوف نجد أنّ الحياة التي كنّا نعيشها - رغم كلّ ما فيها من نعم ولذات - هي بالقياس إلى الحياة في ظلّ الظهور بمنزلة الألم والمشقة!

فالحياة الهانئة التي كنّا نعيشها، مهما بلغت من رغد العيش وهدوء البال، فإنّها تبقى مشوبةً بالمنغصات والآلام والمكاره؛ فحياتنا الاعتيادية في أرقى مراتبها ممزوجةٌ بغصةٍ وخوفٍ وقلقٍ ونقصٍ ومرضٍ وفراقٍ وغير ذلك، ولكن ماذا عن الحياة في ظلّ دولة المهدي الموعود (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؟!

كيف نصل إلى هذا الفهم؟ حينما لا نتعامل مع قضية الظهور الموعود لصاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه) بوصفها مجرد حدثٍ سياسيٍّ، بل بوصفها نقطة انطلاقٍ للحياة الطيبة للبشرية في هذا العالم، ومصدّقاً أنّ لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾¹. إذ تُتَوَجَّح في تلك

¹ سورة القصص، الآية 5.

اللحظة إرادة الله في تحقيق الغاية من استخلاف الإنسان وعمارة الأرض، فتنحَوّل الأرض إلى جَنَّةٍ عامرةٍ بالنعيم المادّيّة والمعنويّة والروحيّة، ومفعمةٍ بالطمأنينة التامة.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ حياتنا العاديّة - حتّى في أفضل حالاتها - ممزوجة بالمرض والخوف والنقص، وإنّ ظهور الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ليس مجرّد حدث سياسيّ، بل هو بداية «الحياة الطيّبة» للبشريّة وتحقيق «هدف الخلق». ومن ذاق حلاوة عبوديّة الله واللذة الخالصة، سيرى في الحياة الحاليّة «ضيّقاً» لا «راحة»، وسيكون مستعدّاً للتضحية بأعزّ ما يملك - أي حياته - لتحقيق تلك الحياة الطيّبة»¹.

وللإمام الخامنيّ (قدّس سرّه) كلام في كتابه القيم «إنسان بعمر 250 سنة» حول «خصائص المجتمع المهدويّ»، يبيّن فيه مجموعة خصائص مادّيّة ومعنويّة لعصر الظهور²، وإذا ما قارنّا بين هذه الخصائص وخصائص الحياة العاديّة التي اعتدنا عليها، ووضعناها في مقياس اللذة، ندرك الفرق الهائل بينهما.

وكذلك للشهيد مطهري بحث مهمّ في بحث «نخضة المهديّ في ضوء فلسفة التاريخ» حول خصوصيّات المجتمع المثاليّ الذي سوف يتحقّق مع ظهور الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه)، والتي من ضمنها: انتصار الحقّ والعدل واقتلاع جذور الباطل والظلم، وعمران الأرض واستثمار خيراتها إلى أقصى حدّ ممكن³.

قد يقول أحد: ولكن أليس من المحتمل أن يُدرك الموت وأنا أسعى في هذا الطريق قبل إدراك الظهور، أو مثلاً حاربت مع الإمام واستشهدت قبل تحقّق الحياة الطيّبة؟! ماذا أستفيد حينها؟! وهنا نقول له: إنّك في هذه الحالة تكون قد وصلت إلى الحياة الأصليّة مباشرة؛ لأنّ الحياة في ظلّ الظهور الموعود لصاحب العصر والزّمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف) هي أنموذجٌ عن الجنّة والحياة الأبديّة الطيّبة، فإذا كنت في هذا الركاب وقضيت نحبك، فإنّك تكون قد وصلت مباشرةً إلى تلك الحياة المطلوبة ولم تخسر شيئاً.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «كما أنّ الخدمة في ركاب الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف) تحمل من الأجر والمقام الأبديّ ما يجعل مقارنتها بحياة هادئةٍ تمتدّ لسنتين أو سبعين سنة في الدنيا مجرّد مزاح وخسارة عظيمة»⁴.

تغيير موقع الاحتياج (نحن الغرقى لا المنقذين)

المسألة الثّانية التي ينبغي التأكيد عليها هي: «تغيير موقع الاحتياج». فإنّنا أحياناً حين نتحدّث عن التمهيد للظهور نتوهم أنّنا نحن من سيذهب لمساعدة صاحب العصر والزّمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وأنّه هو

¹ اليزدي، محمّد تقى، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 30.

² انظر: الخامني، علي، إنسان بعمر 250 سنة، الصفحات 461 إلى 467.

³ انظر: مطهري، مرتضى، أنسنة الحياة في الإسلام، الصفحات 429 إلى 431.

⁴ اليزدي، محمّد تقى، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 31.

المحتاج إلينا ونحن نعمل ونسعى لنصرته، أمّا نحن فمستغنون عن ظهوره، وحينها يبدأ الصراع الداخلي في أنفسنا: هل نفضّل حياتنا الهانئة أم مساعدة الإمام؟!

ولكن إذا نظرنا إلى واقع الأمر، نجد أنّنا نحن المحتاجون إلى الظهور، ونحن الغرقى الذين ينتظرون من يأخذ بأيديهم. ولذلك نجد القرآن الكريم يتحدث مع البشرية بلغة «المنّة» حينما يُخبرهم عن المستقبل الموعود لهم، حيث يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾¹. وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾² ورد عن الإمام الكاظم (عليه السلام) أنّه قال: «إِنْ غَابَ إِمَامُكُمْ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِإِمَامٍ جَدِيدٍ؟»³.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ صَدَقْنَا فِي قَوْلِ: «العجل» فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ هُوَ تَوَهُّمُنَا بِأَنَّنا نحن الذين سنذهب لمساعدة الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، أي: شعورنا بالاستغناء. ومن هنا، فما لم نفهم أنّنا بدون الظهور غارقون في مستنقع الضلال والضغط الخفيّة للعدوّ، فإنّ صرخة «الغوث» منّا لن تكون حقيقةً.

وإذا آمنا بأنّ محبة الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف) لنا تفوق محبة الأب والأمّ، فسنرى حضن الظهور أكثر أمنًا من أيّ سقف أو حياة عادية. في الحقيقة، إنّ الحياة العادية من دون الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ليست إلّا انعدامًا كاملاً للأمان، ولكنّا اعتدنا عليه»⁴.

ويقول الإمام الخامني (قدّس سرّه): «لعلّه قلّ في تاريخ البشرية أن تمرّ فترة يشعر فيها أفراد البشر، والمجتمع الإنسانيّ في مختلف أنحاء العالم، بمقدار ما يشعرون به اليوم من حاجة إلى منجٍ؛ سواء النخب التي تدرك هذه الحاجة بوعي وإدراك، أم كثير من الناس الذين يشعرون بها وإن كانت في أعماق وغيهم الباطن. إنّها حاجة إلى منجٍ، حاجة إلى المهديّ، حاجة إلى يدٍ مقتدرة من القدرة الإلهية، حاجة إلى إمامة معصومة، حاجة إلى العصمة، وإلى الهداية الإلهية. ولعلّه لم يشهد تاريخ البشرية في فترات كثيرة أن يشعر الإنسان بهذه الدرجة من الحاجة إلى هذه الحقيقة السامية»⁵.

سلوك طريق الحبّ

الأمر الثالث الذي ينبغي أن نتنبّه إليه هو الارتقاء بعلاقتنا مع الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف) إلى علاقة حبّ خالصة نابعة من معرفتنا بمقامه الشريف. فمن يعرف مقام هذا الإمام العظيم عند الله، وكذلك تأثيره على سعادة البشرية وكمالها، تتولّد في باطنه حالة حبّ تلقائيّة تجاهه. وإذا تحوّلت العلاقة مع الإمام إلى محبة

¹ سورة القصص، الآية 5.

² سورة الملك، الآية 30.

³ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الجزء 1، الصفحة 339.

⁴ اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 31.

⁵ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2020/04/09.

راسخة ببركة تراكم المعرفة بمقامه السامي واليقين بأنه يمثل غاية السعادة الإنسانية، يصبح الدعاء بتعجيل الفرج دعاءً صادقاً من حبيب محبوبه.

فإنَّ مجرد التفكير بأنَّ المحبوب في غربة وأننا بعيدون عنه يجعلنا غير قادرين على تحمّل غيبته، ويتحقّق فينا المعنى الوارد عن الإمام الصادق (عليه السلام) حينما يخاطب صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه) بقوله: «سَيِّدِي غَيْبَتُكَ نَفْتُ رُقَادِي وَضَيِّقْتُ عَلَيَّ مِهَادِي وَابْتَرْتُ مِنِّي رَاحَةَ فُؤَادِي، سَيِّدِي غَيْبَتُكَ أَوْصَلَتْ مُصَابِي بِفَجَائِعِ الْأَبَدِ»¹.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «الطريق إلى صدق الدعاء هو «الحب». فالمنتظر الحقيقي هو من يتمتّع بتعجيل الفرج لأنَّ «محبوبه» يعيش منذ قرون في الألم والغربة والمعاناة. فإذا أحببنا شخصاً حبّاً حقيقياً، فإنَّ انتهاء معاناته يصبح أهمّ بالنسبة لنا من راحتنا الشخصية»².

والإمام الخامنّي (قدّس سرّه) في خاتمة بحث المهدويّة في كتاب إنسان بعمر 250 سنة، وفي طيّات حديثه عمّا أسماه «ضرورة الارتباط العاطفي والمعنوي والروحي بإمامنا العظيم وليّ الله المعصوم»، يقول: «القضية لا ينبغي أن تجعلها محدودة في إطار التحليل الفكري [...] إنّ هذا الإنسان الذي اصطفاه الله موجود اليوم، ويجب أن نقوّي علاقتنا به من الناحية الشخصية والقلبيّة والروحيّة [...] فليجعل كلّ واحد من أبناء مجتمعنا توسّله بوليّ العصر وارتباطه به ومناجاته معه وسلامه عليه وتوجّهه إليه، تكلّيفاً وفريضةً، وليدعُ كما لدينا في الروايات، وهو الدعاء المعروف: «اللهم كن لوليك»³»⁴.

أربعة حلول عمليّة لتقوية الصدق في قولنا «العجل»

الحلّ الأوّل: الإنفاق ممّا نُحِبُّ

فإنَّ استئناسنا بنمط الحياة السابق قد يكون منشأً للتعلّق بها، وهذا التعلّق هو الذي يسبّب الخوف اللاواعي حيال فكرة الظهور؛ فالمرء إذا تعلّق بداره وماله ومعاشه استصعب فكرة النفير والمسير إلى صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ولو حبّواً على الثلج تاركاً وراءه الدنيا. هذا المعنى قد يبدو يسيراً عند التلقّظ به، غير أنّه يصبح ثقيلًا على النفس في الواقع العمليّ. ومن هنا يكون قطعُ التعلّقات سبباً للصدق في مسألة الدعاء بتعجيل الفرج، والإنفاق هو طريق قطع التعلّقات.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ لقطع التعلّقات التي تمنع من الشوق للظهور الشريف أثراً مهمّاً جدّاً في تقوية الصدق في دعائنا، ولذلك يجب علينا أن ننفق ممّا نحبه بنحو شديد، حتّى «تخفّ قلوبنا» ولا تبقى أسيرةً

¹ المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 51، الصفحة 219.

² اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 32.

³ الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، الجزء 4، الصفحة 162.

⁴ انظر: الخامنّي، علي، إنسان بعمر 250 سنة، الصفحة 477.

للمال والرفاهية»¹.

وفي بيان جوهر الإنفاق، يقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه): «جوهر القضية هو التخلّي عن الشيء الذي تعتبره ملكاً لك، وهذا عمل عظيم. ولذلك يقول الله تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»². وهذه هي مشكلة عالم اليوم، وهي أيضاً المشكلة الكبرى التي عرفها العالم عبر التاريخ [...] ولذلك فإنّ الإنفاق عمل عظيم، وهو تدريب كبير للإنسان؛ أن يتعلّم الإنسان أن يترك ما كسبه وجمعه بيده ومن ماله. إذن، أوّل فائدة تترتّب على الإنفاق هي الفائدة التي تصل إلى المنفق نفسه»³.

الحلّ الثاني: تخصيص وقت خاصّ مع الإمام

الصدق في الدعاء تابع للحبّ، والحبّ هو ثمرة الأُنس، ومن رام بلوغ مرتبة الأُنس بالإمام الحجة (عجل الله فرجه) وسط زحام الدنيا وضغوط الحياة، فعليه أن ينقطع لدقائق عن كلّ الأمور الخارجيّة، ويخلو بالمناجاة والتواصل الروحيّ مع صاحب العصر والزمان، ليعبّر له عن شوقه وحبّه. يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «الحبّ يمرّ عبر الأُنس والذكر، ولذلك يجب أن نخصّص دقائق خلال يومنا بعيداً عن ضوضاء الحرب والحياة، للحديث القلبيّ مع الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف) والتفكير في غربته»⁴.

ويقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه): «عندما تدعون لذلك الإمام العظيم، فإنّكم في الحقيقة تقيمون علاقة معه. وعندما تقرؤون دعاء «اللَّهُمَّ كُنْ لَوْلِيَّكَ»⁵، فإنّكم في الواقع تتواصلون مع إمام زمانكم، الذي ورد عنه أنّه قال: «ادعوا لنا، ونحن ندعو لكم». وعندما تدعون بفرج ذلك الإمام العظيم، فإنّكم في الحقيقة تهَيِّتُونَ الأرضيّة لأن يدعو لكم ذلك العظيم، ومن أجلكم [...] تحدّثوا مع الإمام، وسلّموا عليه، وزوروه، سواء من خلال الزيارات الماثورة الموجودة، أو حتّى من خلال لغتكم العاديّة؛ تحدّثوا مع حضرته بلسانكم المعتاد»⁶.

الحلّ الثالث: الاستغفار من ثقل الذنب

فكلّ ذنب نرتكبه يزيدنا تعلّقاً بالدنيا ويُبعدنا عن روح الانتظار الحقيقيّة. وإذا كان المطلوب منّا هو أن نرتبط بصاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، فينبغي علينا قطع التعلّق بالدنيا والاستغفار من الذنوب.

فقد ورد في التوقيع الشريف لصاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف): «فَمَا يَحْسِبُنَا عَنْهُمْ إِلَّا مَا

¹ اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 32.

² سورة الحشر، الآية 9. سورة التغابن، الآية 16.

³ من جلسة تفسيرية له (قدّس سرّه) بتاريخ 1991/10/16.

⁴ اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 32.

⁵ الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، الجزء 4، الصفحة 162.

⁶ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2014/06/12م.

يَنْصِلُ بِنَا مِمَّا نَكْرَهُهُ»¹. أي إنّ الذنوب والأعمال القبيحة التي تصدر من شيعة الإمام، هي التي تحبسه عن الظهور إليهم.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «الذنوب يجعل روح الإنسان عالقة في التراب وغير قادرة على التحليق، والاستغفار هو الذي يعيد فتح أجنحة الروح للاشتياق إلى ما وراء الحياة العادية»².

الحلّ الرابع: زيادة التعرّف على أهداف الظهور

فإنّ زيادة تعرّفنا على أهداف الظهور، وعلى خصائص الحياة المهدويّة والعالمية في ظلّ الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وعلى خصائص هذه الحكومة الإلهيّة، والاطّلاع على التحوّلات الإنسانيّة الكبرى وعلى مستوى النعم والحياة الطيّبة، يجعل كفة الميزان راجحة لما ينبغي، فتطغى لذّة الحياة في ظلّ صاحب العصر والزمان على أيّ لذّة من لذّات الحياة في زمن الغيبة.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ زيادة الاطّلاع والتعرّف على التحوّلات الإنسانيّة والوجوديّة العظيمة التي ستقع في عصر الظهور تجعل الحياة الحاليّة تبدو في أعيننا لا قيمة لها وغير قابلة للتحمّل»³.

من هنا ينبغي علينا الرجوع إلى الروايات الشريفة التي بيّنت خصائص عصر الظهور، وكذلك الرجوع إلى كتب العلماء الذين تحدّثوا في هذا الصدد، وقد أشرنا في ما سبق إلى كتابي «إنسان بعمر 250 سنة» للإمام الخامنّي (قدّس سرّه) و«نهضة المهديّ» للشهيد مرتضى مطهري (قدّس سرّه)، وكذلك يُنصح بكتّابي «الحكومة العالميّة للإمام المهديّ» للشيخ ناصر مكارم الشيرازي (حفظه الله) و«الإمام المهديّ الموجود الموعود» للشيخ عبد الله الجواديّ الآملي (حفظه الله).

الخلاصة

إذا وجدنا أنّ قول «العجل» أصعب علينا من التمسك بالحياة العادية، فهذا يعني أنّ تعلّقنا بالدنيا قد ازداد. وحينها يجب أن نعلم أنّ كلّ وضعٍ جميلٍ في العالم بلا الظهور، ليس إلّا ظلامًا وانعدامًا للأمان مقارنة بظلّ الأمان في عصر ظهور الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

¹ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، الجزء 53، الصفحة 177.

² اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 33.

³ اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 33.

السؤال الخامس: ما هو منطق ترجيح «تكلفة المقاومة» على «تكلفة المساومة»؟

شرح السؤال:

استناداً إلى أي منطق عقلايٍّ وقرآنيٍّ يمكن إثبات أنّ تكلفة المقاومة - رغم ثقلها - أقلّ من تكلفة المساومة؟ وكيف يمكن لهذا الأمر أن يمنع من وقوع الانقسام وتعدّد الأقطاب والتيارات الزائفة داخل الجبهة الواحدة - مثل انقسام المجتمع إلى تيار التفاوض وتيار الصمود -، بحيث يبقى الجميع ملتزمين بمنطق واحد؟

الجواب:

للإجابة عن هذا السؤال وتحليل معادلة التكلفة والمنفعة بشكل صحيح، ينبغي الالتفات إلى النقاط التالية:

لا شكّ في أنّنا نتحمّل في هذه الأيام آلاماً كثيرة وندفع تكلفةً كبيرة؛ ونجد أنفسنا أمام خيارين وطريقين:

الطريق الأول: أن نتحمّل تكلفة المواجهة والمقاومة.

الطريق الثاني: أن ننجح إلى المساومة ونتحمّل تكلفتها.

ونحن ندرك أنّ لكلّ من المقاومة والمساومة كلفةً وضريبة، ونشعر أنّنا في حالةٍ من التردّد: إلى أيّ الوجهتين نتّجه؟ لتحديد الوجهة، ينبغي علينا الرجوع إلى العقل وإلى الوحي، لنرى أيّ التكلفةتين ينبغي أن نرجّح.

المنطق العقلي: «شهية العدو التي لا تشبع»

وهذا الميزان هو ميزانٌ عقلايٍّ عامّ لا يختلف باختلاف تديّن الإنسان وإيمانه من عدمه؛ إذ مقتضى العقل والتعقل أن يعرف الإنسان واقعه وعدوّه جيّداً، ثمّ ينظر في التجارب التاريخيّة السالفة، فيستقرّئها ويُدقّق في معطياتها، ويُجري حساباته الميدانيّة على ضوءها، فعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال: «العَاقِلُ مَنْ وَعَظَتْهُ التَّجَارِبُ»¹.

والشاهد على المبدأ العقليّ كثرة تأكيد أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبه على ضرورة الاعتبار بأحوال الماضين، فالمتتبّع لكلامه (عليه السلام) في نهج البلاغة يجده لا يدع فرصةً إلّا ويستثمرها في حثّ الناس على الاتّعاظ بسير الأوّلين، أو ضرب النماذج التاريخيّة لاستخلاص العبر؛ وذلك لأنّ أهل الكوفة انتهى بهم الوهن مع أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى إثارة كلفة المساومة والعودة عن تحمّل مشاقّ المقاومة، وهي المعضلة نفسها التي كابدها بعده الإمام الحسن (عليه السلام) حين استسلم الناس للركون والضعف ونادوا: «البَقِيَّةُ البَقِيَّةُ»²، ورجّحوا دفع ضريبة المساومة.

¹ المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 1، الصفحة 160.

² الحلواني، نزهة الناظر وتنبية الخاطر، الصفحة 78.

ومن يعرف عدونا اليوم، وكذلك التجربة التاريخية مع هذا العدو وأشباهه، يُدرك أنّ تكلفة المساومة معهم أثقل من أيّ تكلفةٍ أخرى، وأنهم لا يأتون إلى التفاوض إلّا لابتلاع كلّ شيء. وإنّ كلّ التحليلات التي نسمعها اليوم، والتي تدعو إلى المساومة وترجيح تكلفتها على تكلفة المقاومة، تعاني من نقصٍ بيّن في فهم التجارب السابقة مع أعدائنا، وليس لدى أصحابها معرفة كافية بما مضى من الصراع معهم.

يقول الإمام الخامني (قدّس سرّه) بخصوص التفاوض مع أمريكا: «أنا لست متفائلاً بهذه المفاوضات. لماذا؟ لأنّ تجاربنا السابقة تُظهر أنّ الحوار، في منطق السادة الأمريكيّين، لا يعني أن نجلس للتوصل إلى حلٍ منطقيّ - فليس هذا هو مقصودهم من الحوار - وإنّما يعني، في نظرهم، أن نجلس ونتحدّث حتّى تقبلوا أنتم وجهة نظرنا! فالهدف مُعلن منذ البداية: يجب أن يقبل الطرف الآخر رأيهم. ولذلك كنّا نعلن دائماً ونقول: إنّ هذا ليس حواراً، بل هو إملاء»¹.

ويقول (قدّس سرّه) أيضاً: «أنا بطبيعة الحال لم أكن يوماً متفائلاً بشأن التفاوض مع أمريكا، وليس ذلك من باب الوهم، بل من باب التجربة، فقد جرّبنا. ولعلّكم في يومٍ من الأيام - ونحن بطبيعة الحال لن نكون موجودين في ذلك اليوم -، ستطلّعون إن شاء الله على مجريات الأحداث وتفاصيلها [...] وعندها سترون من أين جاءت هذه التجربة التي نمتلكها. لقد جرّبنا»².

وللإمام الخميني (قدّس سرّه) كلام خطير جدّاً في مسألة التفاوض والمساومة مع أمريكا، حيث يقول: «هل نفاوض أولئك الذين سمّوا أنفسهم محبّي الإنسانية في حين أنّهم إذا أرادوا أن يختبروا دواءً، فإنّهم يختبرونه على شعوب العالم الثالث، كما أنّ أطباءكم يختبرونه على الحيوانات من أمثال الأرانب والفئران؟ هل نستطيع أن نجلس مع هؤلاء ونتحدّث معهم؟ هل يجوز لنا أن نتفاوض مع هؤلاء الذين يعتبروننا كالأرانب والفئران ويعاملوننا بأدنى ممّا تعامل به هذه الحيوانات، ويختبرون أدويتهم على شبّابنا؟»³.

ويقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «التحليلات المؤيِّدة للمساومة تعاني في الواقع من «نقص في معرفة العدو». فالعدوّ إنّما يأتي إلى الميدان بهدف القضاء الكامل على هويّتنا. فإذا تراجعنا اليوم عن الخندق «أ»، فإنّ العدوّ لن يتوقّف، بل سيهاجم الخندق «ب» بشهية أكبر، وتكلفة استعادة الخنادق بعد الانسحاب أكبر بآلاف المرات من تكلفة الصمود الأوّل»⁴.

هنا قد يقول قائل: إنّ المهادنة والمساومة تضمن للإنسان على أقلّ تقدير توفير الخبز والماء، بخلاف خوض غمار الحرب والمقاومة التي قد تسلبه كلّ مقوّمات العيش حتّى الخبز والماء. وينبغي أن نجيب عن هذا التوهّم بأن نقول:

¹ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2013/03/21.

² من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2015/04/09.

³ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 11، الصفحة 18.

⁴ اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 35 و36.

أولاً: إنّ العدوّ المستكبر لا يمنحنا رغيف الخبز وجرعة الماء إلّا مقرونين بالذلّ والهوان، بعد أن يكون قد جردنا من إرادتنا وسلبنا هويّتنا وكرامتنا؛ فمن رضي بهذا النمط من العيش فليقدّم استقالته من إنسانيّته، لأنّ هذا المبدأ يجعل من الإنسان «كالبهيمة المربوطة همها علفها»¹.

ثانياً: إنّ التجربة العقلانيّة التاريخيّة أثبتت بالدليل القاطع أنّ الأمم التي تصمد وتقاوم - وإن تحمّلت في البداية تكلفة المواجهة - هي وحدها التي تبلغ ذروة الاقتدار حتّى في تأمين معاشها من الخبز والماء، وتصل إلى الكفاية والاستغناء التامّين، وزيادة على ذلك تنالهما من دون أدنى ذلّ، بل في ذروة العزّة والكرامة.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «والذين يظنّون أنّ المساومة تعود على المجتمع بالخبز والرفاه، لم يقرأوا التاريخ جيّداً. فالعدوّ لا يمنح «الخبز» إلّا بعد أن يكون قد أخذ «الإرادة»، ثمّ يكون ذلك الخبز خبز العبوديّة له. فالمقاومة لها تكلفة «جسديّة»، أمّا المساومة فلها تكلفة «هويّانيّة» و«جيليّة» لا يمكن تعويضها»².

المنطق القرآنيّ: «الذلّ هو النتيجة الحتميّة للاتّكاء على الظالم»

وهذا المنطق هو منطق خاصّ بمن يعتقد أنّ القرآن الكريم هو أوفى كتاب وأعظم مرجع في التحليل السياسيّ وفهم السنن الاجتماعيّة على مرّ التاريخ.

فمن أظهر الحقائق التي رسّخها القرآن الكريم - حتّى في خطابه المباشر الموجه إلى النبيّ الأعظم (صلّى الله عليه وآله) - هي أنّ الأصل الحاكم في مواجهة المستكبرين ليس الركون إلى التفاوض والمساومة، ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾³. وتلك هي خلاصة الرؤية القرآنيّة المحكمة في ضبط العلاقة مع الاستكبار:

أولاً: أنّه لن يرضى حتّى يسلبك كلّ هويّتك: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

ثانياً: لا تظنّ أنّك إذا ساومت وقدمت له التنازلات فإنّك تشقّ طريقك نحو سعادتك: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

ثالثاً: ولا تظنّ أنّك إذا استجبت له فسوف تنتصر وتظفر: ﴿وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ القرآن الكريم يوضّح نتيجة المساومة بكلّ وضوح. فبحسب الآية 120

¹ الشريف الرضي، محمّد بن الحسين، نهج البلاغة، الرسالة 45.

² اليزدي، محمّد تقى، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 36.

³ سورة البقرة، الآية 120.

من سورة البقرة¹، فإنّ الأعداء لن يرضوا عنكم أبداً إلّا إذا تخليتُم تماماً عن دينكم وهويتكم. بناءً عليه، فإنّ التفاوض للوصول إلى «نقطة وسطية» هو بحسب هذا الفهم ليس سوى وهم، لأنّ النقطة التي يريدوها العدو هي «إفراغ جبهة الحق من مضمونها».

واستناداً إلى النصوص الدينية المرتبطة بالجهاد، فإنّ أيّ أمة تترك واجب الجهاد يُلبسها الله «ثوب الذلّ». وبالتالي، فإنّ تكلفة المقاومة هي «مشقة بعزة»، وأما تكلفة المساومة فهي «مشقة بذلّة»، حيث لا تُضمن الدنيا ولا تُحفظ الآخرة².

ويقول الإمام الخامنّي (قدّس سرّه): «قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. فما دمت لا تضعون حبلهم في أعناقكم، وما دمت لا تصبحون تابعين لهم، فسيبقى الأمر على حاله. قوّوا أنفسكم بحيث لا يؤثّر حبلهم في أعناقكم؛ بحيث إنكم إذا هزّتم أنفسكم قليلاً انقطع ذلك الحبل. قوّوا أنفسكم، لماذا تضعفون أنفسكم حتّى تستسلموا أمامهم، وتصبحوا أذلاء خاضعين، وتسقطوا على الأرض؟!»³.

ويقول (قدّس سرّه) أيضاً: «متى سترضى أمريكا وأمثال أمريكا عنّا؟ عندما نتخلّى عن هذا الإسلام. هل هناك من هو مستعدّ للتخلّى عن الإسلام؟ [...] ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، إنّ هذه إحدى معجزات القرآن. في السابق، كنّا أحياناً نظنّ أنّ هذه الآية كانت تخصّ ذلك الزمان. كنّا نقول: لقد كان الأمر هكذا في ذلك العصر. ولكن اليوم، ما الذي يهتمّ في أن يكون شخصٌ ما مسلماً؟ إنهم يعارضون الإسلام بكلّ مراحل!»⁴.

وكان الإمام الخميني (قدّس سرّه) يقول: «إنهم يحشون الإسلام [...] إنهم يريدون القضاء على الإسلام»⁵.

فلسفة الثورة: «تغيير غاية الحركة»

إنّ جزءاً كبيراً من الخطاب الذي يدعو إلى تحمّل تكلفة المساومة بدلاً من تحمّل تكلفة المقاومة ناشئ من تغيير هدف القيام. فنحن كمجتمعٍ إيمانيّ عندما بدأنا هذه الحركة الإلهيّة، وكذلك في إيران عند قيام الثورة الإسلاميّة، لم يكن هدفنا الأساسيّ منحصراً في توفير الخبز والماء لنثور من أجلهما، بل كانت الغاية أسمى وأرفع بكثير؛ إذ كان قيامنا مرتبطاً بمشروع الله سبحانه وتعالى والقتال في سبيله ونصرة المستضعفين.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «من المغالطات الكبرى التي تُطرح في هذا المجال هو تغيير هدف الثورة. هل قمنا حقاً بثورتنا من أجل ملء البطون؟ إنّ همّ الناس في بداية الثورة لم يكن الفقر فقط، بل كان «إحياء الدين».

¹ ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (سورة البقرة، الآية 120).

² اليزدي، محمد تقی، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 36 و 37.

³ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2012/10/10.

⁴ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 1992/08/10.

⁵ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 7، الصفحة 348.

فإذا كنّا نرى المقاومة مُكلّفة، فهذا لأنّنا غيّرنا الهدف»¹.

وإذا رجعنا إلى كلمات الإمام الخميني (قدّس سرّه) نجد هذا المعنى حاضرًا بشكل واضح، إذ يقول مثلاً: «لقد ثار شعبنا من أجل الإسلام، وبذل الدم من أجل الإسلام»².

ويقول الإمام الخامنئي (قدّس سرّه) مخاطبًا مسؤولي الجمهورية الإسلامية: «هل هناك من هو مستعدّ للتخلّي عن الإسلام؟ إذا كنّا نريد أن نتخلّى عن الإسلام، حسنًا، فلماذا نبقي نحن؟! لماذا أبقى أنا؟! فليأت جهاز أو نظام آخر ويحكم. ما الداعي إلى بقائنا؟! ماذا يريد الناس منّا؟! إنّما يريدنا الناس من أجل الإسلام. الناس يريدونني وإياكم من أجل الإسلام؛ لأنّنا حدّم للإسلام، ولأنّنا أعلنّا أن حركتنا ومسيرتنا من أجل الإسلام»³.

وللشهيد مطهري كلام مهم جدًّا في كتاب «الثورة والدولة» يتحدّث فيه عن ماهيّة الثورة الإسلامية، حيث يعقد بحثًا بعنوان «إلهيّة الثورة»، فيعتبر هذه الثورة من سنخ نهضات الأنبياء، لأنّها قامت على أساس ما يسمّيه «الشعور الإلهي» والاستجابة لله تعالى⁴.

إذا كان القيام لأجل الله ولأجل الإسلام، يأتي قول الإمام الخميني (قدّس سرّه): «أتخافون الاستشهاد؟ هل إنّ الاستشهاد مخيف؟ أتخافون السجن؟ هل إنّ السجن في سبيل الله مخيف؟ أتخافون التعذيب؟ فهل التعذيب في سبيل الله مؤلم؟»⁵ وأمّا إذا كان القيام لأجل مجرّد الرفاه المادّي، فمن الطبيعي أن نقبل المساومة لأجل حفظ الرفاه، ولن يُحفظ بالمساومة!

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «كلّما كان الهدف هو «الله» والقرب منه، أصبحت المشقّات مصدر بركة. أمّا إذا كان الهدف هو «الرفاه المادّي»، فإنّ أوّل ضغط سوف يؤدّي إلى التزلزل والانقسام. وقد أظهرت التجارب التاريخيّة أنّه كلّما كان التمسك بالمبادئ أشدّ، فتحت أبواب النصر الإلهي، بل وتحقّق التقدّم حتّى في المعيشة والتكنولوجيا»⁶.

الوحدة في ظلّ الولاية: «إغلاق طريق الاستقطاب»

إنّ المشكلة التي تعاني منها الجماعة المؤمنة على مرّ التاريخ، والتي تظهر اليوم، هي أنّ كلّ شخصٍ يريد أن يعبر عن رأيه ويسير حركة المجتمع وفق رؤيته الفرديّة، وهذا يورث انقسامًا في الأفكار، ينعكس بدوره على مستوى الميول، ثمّ يتحوّل إلى انقسامٍ في الحركة والتطبيق؛ ممّا يصيب المجتمع بالانتكاس، تمامًا كما حصل في معركة صفّين، وكما حصل أيضًا في الخذلان الذي تعرّض له الإمام الحسن (عليه السلام) وأدّى إلى تشتّت القرار. وفي المقابل،

¹ اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 37.

² الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 7، الصفحة 348.

³ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 1992/08/10.

⁴ مطهري، مرتضى، الثورة والدولة، الصفحة 53.

⁵ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 18، الصفحة 339.

⁶ اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 37.

فإنَّ ما حفظ أيَّ جماعةٍ وصانها رغم المخاطر المحدقة بها هو الالتفاف حول محور الولاية.

يقول الإمام الخامني (قدّس سرّه) في حديثه عن تاريخ الأئمة الإسلامية: «فالأئمة تعرّضت في عصور تالية إلى سيطرة الملك العضوض، وتعرّضت الجماعة الملتزمة إلى الاضطهاد والسجن والتشريد، وكان العامل الذي حصّن هذه الجماعة الملتزمة من السقوط والهزيمة والتراجع هو عامل الولاية حول محور القيادة التي واصلت رسالة رسول الله في المجتمع، أعني أئمة آل بيت رسول الله (عليهم السلام)»¹.

من هنا ينبغي علينا أن نتعلّم من تجارب التاريخ؛ فلنجتمع إذا أصابه الانقسام استحالة عليه أن يُحقّق النصر أو يبلغ غاياته. ولعلّ من أجلى الأدلّة وأوضحها على ضرورة ولاية الفقيه في عصر الغيبة تحقّق الوحدة التي توصل إلى النصر والظفر. فتعدّد الأقطاب يزول حينما يُسلّم الجميع بأنّ التشخيص النهائي للمصلحة هو بعهدة الوليّ الإلهي، سواء كان مقتضى المصلحة الجهاد والمقاومة أم المهادنة والمصالحة.

فحين نتحدّث عن ولاية الفقيه، فإنّنا نتحدّث عن مسارٍ شرعيّ منضبط في الوصول إلى مقام القيادة، ينطلق ابتداءً من اجتماع أهل الخبرة في المجتمع الإسلاميّ، من ذوي العلم والعدالة والبصيرة، لاختيار الأصلح والأكفأ وليّاً لأُمور المسلمين، ثمّ يسري ذلك إلى سائر مفاصل الأئمة، فتكون الأئمة موحّدة في قراراتها، وإلاّ فلو أراد كلّ شخص أن ينفرد برأيه ويحرّر المجتمع إلى جهته لانفرط عقد الأئمة وفُقد الاستقرار.

من هنا كان الإمام الخميني (قدّس سرّه) يعبر عن ولاية الفقيه بأنّها امتداد لولاية النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) والأئمة الأطهار (عليهم السلام)²، ويعرّفها بدورها في حفظ مسار الأئمة: «ولاية الفقيه تعني الولاية على الأمور وحفظها لكي لا تخرج عن مسارها الطبيعي»³.

ويقول الإمام الخامني (قدّس سرّه): «القيادة وولاية الفقيه من النقاط الأساسية التي تضمن للنظام حركته وتوجّهه الإسلامي»⁴.

ويقول أيضاً: «هذه هي الولاية التي تضمن وصول الجماعة إلى أهدافها المرسومة، وبدونها لا يمكن تحقيق ذلك»⁵. ثمّ ينبغي ألاّ نكتفي بمجرد الثقة بالقيادة، بل علينا أيضاً «إنتاج القوّة لأجل الوليّ»؛ وذلك بأن نبحت عن مواضع الخلل والفراغ في مجتمعنا على كافّة الصُّعد والمستويات: علميًّا، وتقنيًّا، وعلى مستوى المهارات، فنعمل على إنتاج القوّة ووضعها في يد الوليّ، قائلين له: إنّ كلّ إمكانيّاتنا وقدراتنا موضوعة تحت تصرّفك، فلا تكن يدك مقيدةً في اتّخاذ القرار.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «من أجل الحيلولة دون وقوع الانقسام وتعدّد الأقطاب بين التفاوض

¹ الخامني، علي، مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، الصفحة 257.

² انظر: الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 10، الصفحة 225.

³ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 10، الصفحة 227.

⁴ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2004/06/11.

⁵ الخامني، علي، مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، الصفحة 256.

والصمود، يجب الالتزام بهذا النموذج العملي:

أولاً: إنتاج القوة من أجل الولي

فواجبنا هو إظهار أقصى درجات الاستعداد، لأنه لو أصابنا الفتور، فستتقيد يد قائد المجتمع في اتخاذ القرار القوي. وبالتالي، ينبغي أن نوفر «إمكان المقاومة» حتى يتخذ ولي الأمر القرار وفق المصالح العليا.

ثانياً: الثقة المطلقة بالولي

يزول تعدد الأقطاب عندما يقبل الجميع أن «تشخيص المصلحة» يعود إلى الولي. سواء كان الأمر بالجهاد أو كانت المصلحة في صلح تكتيكي كصلح الإمام الحسن (عليه السلام). فالفرقة تبدأ عندما يجعل الفرد تحليله الشخصي «مطلقاً»، وأعلى من أمر الولي¹.

ويقول الإمام الخامني (قدس سرّه): «لو راعينا الأبعاد الثلاثة من الولاية: حفظ التماسك الداخلي، وقطع السبيل أمام التدخل الخارجي، وحفظ الارتباط الدائم والعميق مع قلب الأمة، أعني الإمام والقائد، فما الذي يحصل؟ تقول الآية: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾²، إنها من ضروريات النصر»³.

الخلاصة

المساومة هي «شراء راحة مؤقتة بثمن عبودية دائمة»، ومنطق القرآن يقول: إن العدو لا يكتفي بالقليل، ولذلك فإن الصمود في الخندق الأول هو أقل الطرق تكلفاً للحفاظ على الأمن والخبز والإيمان. ووجدتنا في هذا الطريق لا تتشكل حول التحليلات الشخصية، بل حول «الاستعداد لتنفيذ أمر الولي».

¹ البزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 38.

² سورة المائدة، الآية 56.

³ الخامني، علي، مشروع الفكر الإسلامي في القرآن، الصفحة 269.

السؤال السادس: ما البرنامج المقترح لتقوية الروح المعنوية في زمن الحرب؟

شرح السؤال:

إذا أردنا تقوية روحنا المعنوية والظفر بالنصر الإلهي، ما هي الأذكار والأدعية والأعمال العبادية التي لها الأولوية؟ وكيف يمكن أن نحول المعنوية من حالة شخصية محضة إلى سلاح جماعي لتحقيق النصر في الميدان؟

الجواب:

إنَّ النصر في ميدان المعركة تابع بصورة مباشرة لعلاقة «جبهة الحق» بـ«خالق القوة». والبرنامج المعنوي الآتي يمثل خطة مقترحة في هذا المجال، ويشتمل على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: إحكام الأساس الذي يقوم عليه النصر (التقوى: أداء الواجبات + ترك المحرمات)

بحسب المنطق القرآني، للنصر الإلهي والمدد الإلهي شرطان يبينهما قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾¹. وقد تقدّم في السؤال الثالث الحديث عن الصبر، إلّا أنّه لا يكفي لتحقيق معادلة النصر، بل لا بدّ من شرط التقوى أيضاً. يقول الإمام الخميني (قدّس سرّه) في تعريف التقوى: «اعلم أنّ التقوى من الوقاية بمعنى المحافظة. وهي في العرف وفي مصطلح الأخبار والأحاديث تعني وقاية النفس من عصيان أوامر الله ونواهيه وما يمنع رضاه»². ويُعرّف الإمام الخامني (قدّس سرّه) التقوى بأنّها: «الابتعاد عن الخطأ والمعصية والإثم والفساد، وعن الانحراف عن الطريق الصحيح واتباع الأهواء، وهي تسليم النفس لسبيل التكاليف والواجبات»³. ثمّ يقول (قدّس سرّه) مبيناً علاقة التقوى بالنجاح والتوفيق: «ينبغي على الجميع في مختلف المجالات الاتّصاف بالتقوى لتحقيق النّجاح. فهي شرط التّوفيق في كلّ مسلك وطريق، ولا تختصّ بالدين فقط، إلّا أنّ التّقوى الدّينيّة واضحة وبيّنة، وحلوة المذاق، ومحمودة العاقبة»⁴.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾⁵ يقول (قدّس سرّه): «وقد أخذت التقوى بمعناها الواسع في هذه الآية الشريفة بعين الاعتبار؛ فهي بمعناها العامّ، أي مراقبة الإنسان لنفسه كي لا ينحرف عن الصراط المستقيم للشريعة الإسلامية، وهو المعنى الذي استعملت فيه في مواضع كثيرة؛ وهي كذلك

¹ سورة آل عمران، الآية 125.

² الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، الصفحة 295.

³ الخامني، علي، التقوى مفتاح البصيرة، الصفحة 19.

⁴ الخامني، علي، التقوى مفتاح البصيرة، الصفحة 19.

⁵ سورة آل عمران، الآية 120.

بمعنى التحقّظ والحذر من العدو ومراقبته، بدلالة الآيات التي سبقت هذه الآية، والتي تتحدّث عن الأعداء. كونوا حذرين؛ أنتم في مواجهة عدوّ. فالإنسان يعيش في ميدان الحرب بطريقة، ويعيش في حال عدم وجود الحرب بطريقة أخرى. فالإنسان في الخندق يجلس بطريقة، ويستريح بطريقة، وينام بطريقة؛ أمّا في الغرفة المريحة داخل بيته، فإنّه ينام ويعيش بطريقة أخرى. اعلّموا أنكم في مواجهة عدوّ؛ وهذا ما ينبغي لنا جميعاً أن نعلّمه. والتقوى بهذا المعنى هي: مراقبة الإنسان لنفسه في مواجهة العدو، والحذر من الثقة بالعدوّ - فلا تنقوا بالعدوّ - هذه هي التقوى بهذا المعنى. وهي تعني أيضاً الحذر من حيل العدو ومكره؛ فلا تكتفوا بعدم الثقة به، بل افهموا حتّى أساليبه ومخططاته، واعلموا ماذا يفعل، وما الحيلة التي يلجأ إليها؛ كونوا مستعدّين، وكونوا يقظين. وحيل العدو ليست حيلاً عسكريّة فحسب. والتقوى تعني كذلك مراعاة التدبير والحكمة؛ أي تجنّب العمل المخالف للقواعد والمخالف للمنطق والعقلانيّة، وتجنّب التراخي والإهمال. هذا هو معنى الآية الشريفة. فإذا التزمتم - أيّها الشباب الأعزّاء، والمسؤولون عن الشؤون العسكريّة والأمنيّة والاقتصاديّة وغيرهم في الدرجة الأولى، وسائر الناس وعموم الشعب في الدرجة الثانية - بذلك الصبر وبمقتضيات هذه التقوى، فإنّ قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾¹ سيتحقّق؛ فلن يستطيعوا أن يلحقوا بكم أيّ ضربة أو أيّ أذى².

ويتضاعف هذا التأثير بحسب المنطق القرآنيّ عندما تشتدّ الحرب، فما لم تتشكّل في المجتمع جماعةً وازنةً ومعتدّة بها تلتزم الصبر والتقوى، فلا يتحقّق النصر. من هنا نجد الشهيد مطهريّ (قدّس سرّه) يتحدّث عن آثار عجيبة للتقوى يظهر أثرها في اللحظات المصيريّة التي يمرّ بها الإنسان، فيقول: «ويبقى للتقوى أثران مهمّان، وهما:

1. تنوير القلب والبصيرة: حيث جاء في الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾³.
2. إزالة الخوف: حيث يقول الله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾⁴.

ومن الأمور التي ينبغي الحذر منها هي تأثير الذنب الفرديّ والشخصيّ على توازن جبهة الحقّ، فالذنب الفرديّ الذي يرتكبه الإنسان في خلوته يمكن أن يؤثّر على مصير المعركة بأكملها، والأمر لا يختصّ بالذنوب الاجتماعيّة. وهذا ما يؤكّد عليه الشيخ اليزديّ (قدّس سرّه)، وذلك باعتبار أنّ المجتمع ليس أمراً منفصلاً عن أفراد، فالمجتمع هو نحن، وروح المجتمع هي روحنا، وتقوى المجتمع هي تقوانا.

وحينما نتحدّث عن التقوى، فنحن نتحدّث عن ركنين: فعل الواجبات وترك المحرّمات، وللشيخ اليزديّ (قدّس سرّه) تأكيد خاصّ على بعض الواجبات التي تؤثّر تأثيراً خاصّاً في زمن الحرب، وعلى رأسها: الصلاة في أوّل الوقت والواجبات الاجتماعيّة والتنظيميّة.

¹ سورة آل عمران، الآية 120.

² من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2018/06/30.

³ سورة الأنفال، الآية 29.

⁴ سورة الطلاق، الآية 2.

⁵ مطهري، مرتضى، آثار التقوى، الصفحة 12 (بتصرّف).

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ التقوى «شرط لازم» لنزول مدد الملائكة بحسب صريح القرآن الكريم¹، والتقوى تعني: الوقوف عند حدود الله، وهذا له جناحان:

الجناح الأول: الالتزام الجادّ بالواجبات: والركن الأساسي في هذا الجناح هو: الصلاة في أوّل الوقت، فهي منشأ جميع القوى في روح المؤمن والمجاهد، والنصر في الميدان يبدأ من سجادة الصلاة. وكذلك فإنّ أداء المهامّ الموكّلة لنا بدقّة في جبهة الحقّ - أي الواجبات الاجتماعية والتنظيميّة - يُعدّ جزءًا من واجبات التقوى.

الجناح الثاني: ترك المحرّمات: وهو خندق الطهارة، فإنّ ذنب شخص واحد في الخلوة قد يخلّ بتوازن القوّة في جبهة الحقّ ويؤثّر النصر. فالتقوى تعني المراقبة والمحاسبة والتنبّه، كي لا يقطع أيّ ذنب سلك الاتّصال بالنصر الإلهي².

الطبقة الثانية: تجديد العهد دائماً مع القائد الحقيقي

من الضروري جدّاً بالنسبة لأيّ جماعة في زمن الحرب أن تجدد العهد مع قائدها الحقيقي؛ إذ كيف يرجو المرء النصر إن لم يكن وثيق الصلة والارتباط بقائد الجبهة على المستوى المعنوي والروحي؟! وأيّ نصرٍ هذا الذي يُراد تحقيقه بمعزلٍ عن هذا الارتباط الوثيق؟!!

ومن هنا يشدّد العلماء العظام على مسألة تحويل العلاقة مع صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف) إلى علاقة قيادة بالمعنى الحقيقي والنظر إليه بوصفه القائد الفعليّ لنا. وهذا هو الأمر الذي قد تقع الغفلة عنه؛ إذ يتحدّث البعض عن هذا القائد الإلهي وكأنّه بمعزلٍ عن مجريات الأمور أو مجرد ناظرٍ ومتفرّجٍ! وهذا خطأ كبير في معادلات الصراع مع الطاغوت.

يقول الإمام الخميني (قدّس سرّه) في مقام التذكير بالقائد الحقيقي: «يجب أن تتنبّهوا أيّها السادة في الحرس الثوريّ أيّدكم الله إن شاء الله، وكذلك كلّ المحاكم وكلّ اللجان وكلّ الشرائع التي تريد خدمة هذا الوطن، ليتنبّهوا أنّ هؤلاء كلّهم خدمة الإسلام. إنّها الآن جمهوريّة إسلاميّة، وأنتم من جنود الإسلام. أنتم جيش الإسلام. أنتم موظّفو الإسلام وموظّفو صاحب الزمان»³.

من هنا نجد الإمام الخامني (قدّس سرّه) حينما يتحدّث عن الانتظار يستفيد من الأدبيّات العسكريّة ويُعرّف الانتظار بالتأهّب العسكريّ أمام القائد الحقيقيّ، فيقول: «الانتظار بمعنى التصدّد. لدينا في الأدبيّات العسكريّة شيء اسمه «التأهّب»، والانتظار معناه «التأهّب»، يجب أن نكون متأهّبين»⁴.

وهنا تبرز الأهميّة البالغة والموقعيّة الرفيعة لقراءة «دعاء العهد» صبيحة كلّ يوم، بوصفه ركناً ضرورياً لتثبيت هويّة

¹ «يَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ» (سورة آل عمران، الآية 125).

² اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 41.

³ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 11، الصفحة 21.

⁴ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2017/05/10.

الجندیة الحقیقیة، وتذكیرًا دائمًا للفرد بدوره ووظيفته في ظل الخطّة الإلهیة الكبرى. يقول الشيخ الیزدی (قدّس سرّه): «ینبغي علينا تحويل العلاقة مع الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف) من حالة «الطلب فقط» إلى حالة «العهد والميثاق المتبادل». أي أن يعاهد الإنسان إمامه قائلاً: «مولاي! من هذه اللحظة لن أقوم إلّا بما تحبّ، وسأترك ما تبغض». وهنا تبرز قيمة قراءة دعاء العهد صباحًا، كأمر ضروريّ لتثبيت هویة الجندیة وتذكیر الفرد بدوره في الخطّة الكبرى للإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف)»¹.

الطبقة الثالثة: استخدام الأسلحة الميدانيّة: (الأذكار والتوسّلات)

بعد الفراغ من إحكام الطبقة الثانية، ينبغي على المجتمع الإيمانيّ أن ينتقل إلى الأسلحة الميدانيّة المتمثلة في الأذكار والتوسّلات؛ فالكثير من الناس ينصرفون ابتداءً وبدافع الحماس العاطفيّ إلى التوسّل وقراءة الأذكار، في حين أنّ الأساس والمنطلق يكمن في تحصيل الطبقات الأولى ورعايتها أولاً، ثمّ التوجّه إلى الأذكار والتوسّلات. من ضمن الأذكار المهمّة والمؤثّرة في تقوية الروح المعنويّة في زمن الحرب والتي كان ينصح بها الشيخ الیزدی (قدّس سرّه)² استنادًا إلى الروايات الشريفة وتوصيات العرفاء الكبار كالشيخ محمّد تقي بهجت (قدّس سرّه): ذكر الاستغاثّة بالإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف): «السلام عليك يا مولاي يا صاحب الزمان، يا مولاي أغني، أدني، أدركني، صلي بك ولا تقطعني». وخاصّةً عند اشتداد الضغوط الناتجة عن الحرب. وهذا الذكر وارد في زيارة صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بالصيغة التالية: «يَا وَقَايَةَ اللَّهِ وَسَرَّهُ وَبَرَكَتَهُ أَغْنِي، أَدْنِي، أَدْرِكْنِي، صَلِّ بِيْكَ وَلَا تَقْطَعْ عَنِّي»³.

ذكر الصلاة على محمّد وآل محمّد: وهو - كما يقول الشيخ الیزدی (قدّس سرّه) - أفضل ذكر لدفع شرّ الأعداء والظفر بالفتوحات، وينقل عن الشيخ بهجت (قدّس سرّه) أنّه كان يقول إنّّه لم يجد في جميع أذكار الإسلام ذكرًا أفضل من الصلاة على محمّد وآل محمّد.

ذكر الاستغفار: وكان الشيخ الیزدی (قدّس سرّه) - استنادًا إلى ما ورد عن النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله): «إِنَّهُ لَيَغَاثُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ بِالنَّهَارِ سَبْعِينَ مَرَّةً»⁴ - يشدّد على ضرورة السعي لاستغفار الله تعالى يوميًا سبعين مرّة في سبعة أوقات، وكان يقول: ليس هذا بالأمر الصعب ولا يحتاج إلى طاقة كبيرة، وإذا وُجدت هذه الهمة في نفوسنا، فإنّ الله سيساعدنا.

الطبقة الرابعة: تعزيز قواعد القوّة الجماعيّة

الطبقة الرابعة والأخيرة هي طبقة القوّة المعنويّة الجماعيّة؛ إذ لا يفي بالغرض أن يقتصر التحصين المعنويّ على

¹ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 41 و42.

² انظر: اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 42 و43.

³ المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 91، الصفحة 36.

⁴ المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 25، الصفحة 204.

مستوى الأفراد المتفرّقين، بل لا بدّ من تشكّل جماعةٍ وازنةٍ ومؤثّرةٍ في صلب المجتمع ترتقي معنويّاً بسير موحد. فالتحوّلات والمسارات الاجتماعية الكبرى لا تُبنى على جهود أفرادٍ متفرّقين، وإنّما تفتقر إلى وجود كتلةٍ وازنةٍ وجماعةٍ متماسكةٍ حتّى يغدو النصر أمراً حتميّاً ومحققاً، وعليه فلا مندوحة عن تعزيز القوّة المعنويّة الجماعيّة.

وفي هذا السياق، يقترح الشيخ اليزدي (قدّس سرّه)¹ توصيتين عمليّتين:

التوصية الأولى: إقامة مجالس الدعاء والصلوات والتوسّلات الحضوريّة العامّة؛ فإنّ التّمام الجمع يفضي إلى تآزر القوى المعنويّة بين الأفراد، وينشأ عنه تعاضدٌ وثيقٌ في مسار تحقيق النصر، كما أنّ تشابك أيدي الجميع على صعيدٍ واحد. والواقع أنّ الأثر الروحيّ المترتّب على الحضور المباشر في هذه المحافل يفوق بأضعافٍ مجرّد متابعه الأدعية عبر الشاشات والوسائط. كما يندرج تحت هذا الباب إقامة صلوات الاستغاثة لرفع الاضطراب ودفع البلاء، وهي صلواتٌ ماثورةٌ ومثبّنةٌ في جوامع الأدعية، ولا تكاد تخلو منها حشود المؤمنين في مواطن الحن والشدائد.

التوصية الثانية: التوجّه الجماعيّ لزيارة الأماكن المقدّسة؛ فقد كان دأب الشيخ (قدّس سرّه) نفسه عند كلّ ملامّةٍ أو تهديدٍ أو حربٍ أو مضيقٍ شديد أن يقصد مباشرةً حرم السيّدة فاطمة المعصومة (عليها السلام) ومسجد جمران لأداء صلاة الاستغاثة والتضرّع. غير أنّه يبيّن أنّ هذا التدبير لا ينحصر في العتبات الكبرى فحسب، بل يمتدّ ليشمل ما دلّت عليه النصوص الشريفة. فمثلاً، عن الإمام الكاظم (عليه السلام) أنّه قال: «مَنْ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَزُورَنَا فَلْيَزُرْ صَاحِبِي مَوَالِينَا يُكْتَبَ لَهُ ثَوَابُ زِيَارَتِنَا»². ومن هنا يشدّد على الالتجاء إلى أضرحة الشهداء ومزاراتهم، لما تنطوي عليه تلك البقاع من أثرٍ بالغٍ في ترسيخ المعنويّات وتثبيت عزائم المجتمع. وتتلخّص وصيّته في أنّه متى ما استحكمت الطرق وانسدت المنافذ في أيّ حقٍ ميدانيٍّ أو تبليغيٍّ أو ثقافيٍّ، فالمفزع هو المبادرة إلى أقرب مرقدٍ لشهيد، والتوسّل به وجعله وسيلةً وزلفى إلى الله سبحانه.

وهنا ننقل أيضاً ما ذكره أحد المقرّبين من الإمام الخامنّي (قدّس سرّه)، وهو الشيخ رحيميان (حفظه الله)، الذي كان مسؤولاً عن مؤسّسة الشهيد في إيران ومتولّياً لمسجد جمران المقدّس، حيث يقول في حوارٍ أُجري معه: «كان القائد إذا شعر بالتعب يختار أن يريح نفسه بأحد أمور ثلاثة: زيارة عوائل الشهداء، زيارة مسجد جمران، زيارة حرم الإمام الرضا (عليه السلام)».

¹ انظر: اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 43 و 44.

² المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، الجزء 99، الصفحة 295.

الخلاصة

التقوى شرط للنصر، وهي تمثل عقدًا مع الله تعالى. ولذا ينبغي علينا القيام بأداء الواجبات وترك الذنوب حتى يرسل الله نصره الخاصّ إلى جبهتنا. وإلا، فمهما امتلكنّا من التجهيزات، إن كنّا «بلا صلاة» و«مع ذنوب»، فنحن مهزومون مسبقًا. وإنّ النصر الإلهيّ ليس رخيصًا، بل ثمنه الصبر في العبوديّة والتضرّع في خندق مواجهة الأعداء.

السؤال السابع: ما هويّتي بوصفي ناشطاً اجتماعياً، وما الواجبات الملقة على عاتقي؟

شرح السؤال:

بوصفي ناشطاً اجتماعياً، ما هي التكاليف التي تقع على عاتقي في خضمّ الحرب؟ وكيف أربط «الحقائق الصعبة» بـ«الأمل والثبات»، وأؤدّي في ساحة المجتمع حقّ «المواساة والإيثار»؟

الجواب:

الناشط الناجح هو الذي يتحلّى بخصائص الفرد التعبويّ من وجهة نظر القرآن الكريم. وهذا الفرد التعبويّ يمتلك أربع خصائص أساسية:

1. أن يكون «رَبِّيًّا»

وهذه الصفة مستلزمة من قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾¹.
والربّيّ بحسب الآية الكريمة هو الذي تتوفّر فيه الخصوصيات التالية:
أ. لا يعتريه الوهن والضعف رغم كلّ ما يصيبه في سبيل الله.

فهو يعلم أنّ هذا المسير محفوف بالمخاطر، بالفقد، بالقتل، بالأسر، بالدمار، ولكنّه يعرف هدفه ويعرف قيمة حركته، ويعرف مقصده، ويعرف أنّ الله يرى كلّ ما يقدّمه، ولن يضيع أجره، ولذلك لا يضعف مهما أصابه في سبيل الله.

ب. يستغفر الله من كلّ تقصير في مسير الحقّ.

فهو لا يمتنّ على الله تعالى ولا على المسيرة، بل يظلّ مستشعراً لتقصيره في جنب الله مهما بذل وقدم في سبيل هذا المشروع الإلهي، موقناً بأنّ عمله يعتريه النقص. إذ إنّ أعظم الآفات التي يمكن أن تُبتلى بها الحركة التعبويّة هي شعور الفرد بالفضل والاستعلاء بما قدّمه؛ فإنّ أتباع الأنبياء أنفسهم عُرضة للوقوع في التقصير أو القصور، وارتكاب الأخطاء والإفراط أو التفريط، ومن هنا يتعيّن التحلّي بالروحانيّة الإيمانيّة التي تجعل العبد يرى دائماً أنّ جبهة الحقّ هي صاحبة الفضل والمِنَّة عليه لا العكس.

ج. يرتبط بالله على الدوام ويسأله الثبات والنصر.

فهو يعرف أنّ مصدر القوّة الحقيقيّة ومصدر الثبات والصمود هو الله تعالى، ويؤمن بأنّ الدعاء سلاح، وأنّ الله

¹ سورة آل عمران، لآيتان 146 و147.

يستجيب دعاء عباده، وليس بغافل عنهم.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «يجب على الناشط الاجتماعي أن يعدّ نفسه فردًا تعبويًا مخلصًا، وهذا الفرد التعبوي هو من أوضح مصاديق «الإنسان الرّبيّ» الذي يتحدّث عنه القرآن الكريم¹. وقد تؤدّي الحرب الطويلة إلى الفقر والتشرّد والإرهاق، ولكنّ «الرّبيّ» هو الذي لا تنهار إرادته مع طول أمد الحرب، ولا يخضع للعدوّ، وهو الذي يداوم على الاستغفار من الزّلات، ويحافظ على طهارة خندقه حتّى لا يتأخّر النصر الإلهي»².

ويقول الإمام الخامنّي (قدّس سرّه) في هذا المجال: «إنّ تأثير الاستغفار يظهر في أحد أصعب ميادين الحياة، ألا وهو ميدان المواجهة العلنيّة مع العدوّ. وقد جاء في هذه الآيات الشريفة من سورة آل عمران: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾.

أي إنّ هؤلاء الذين كانوا يجاهدون في ميدان الحرب مع الأنبياء، والذين كانوا ربّيين أو ربّانيّين ومن عبّاد الله وأهل التوحيد، كانوا يقولون في دعائهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾³.

2. أن يكون مثل «عمّار ومالك»

من الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها التعبويّ المخلص في حركته العمليّة صفتان: «البصيرة والاستقامة»، وهاتان الصفتان تجسّدتا في نماذج تاريخيّة بارزة مثل عمّار بن ياسر ومالك الأشتر مع أمير المؤمنين (عليه السلام): فأما عمّار بن ياسر: فقد عُرف بالبصيرة الثاقبة؛ فرغم تقدّم سنّه في معركة صفّين، كانت الرؤية لديه في غاية الجلاء والوضوح، وكان يزن الأمور بنور البصيرة العلويّة، وسرّ ذلك أنّ الإنسان كلّما قاربت رؤيته رؤية الوليّ وحاكته، رأى الحقّ كما يراه وليّه، ومن كان على بصيرة عمّار لم تسترّله الشبهات ولم تحدّعه أراجيف الفتن، كما جرى في صفّين حين رُفعت المصاحف على أسنّة الرماح ورُوجت شعارات التحكيم المضلّة، بل نهض ببصيرته لكشف الغطاء والتبيين؛ فأن تكون كعمّار يعني اكتساب البصيرة وتجلية الحقائق وسط غبار الفتن.

يقول الإمام الخامنّي (قدّس سرّه): «في معركة صفّين، لدينا عمّار، فعّام كان دائماً منشغلاً بإلقاء الخطب؛ يذهب إلى هذا الجانب من الجيش، ثمّ إلى الجانب الآخر، ويتحدّث إلى مجموعات مختلفة. فقد كانت هناك فتنة حقيقيّة؛ إذ وقف فريقان من المسلمين في مواجهة بعضهما بعضاً، وكانت فتنة عظيمة، وكان بعض الناس في حالة اشتباه وحيرة. كان عمّار منشغلاً باستمرار بالتنوع وكشف الحقائق؛ يذهب إلى هنا وهناك، ويلقي الخطب على

¹ ﴿وَكَايْنِ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآيتان 146 و147).

² اليزدي، محمّد تقّي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 46 و47.

³ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2022/04/12.

مختلف المجموعات - وقد سُجِّلَت هذه الخطب، وهي موجودة كلّها في كتب التاريخ -.

في المقابل، كان هناك أولئك الذين كانوا يقولون: «نحن من أصحاب عبد الله بن مسعود...»، وقد ورد في الرواية أنهم جاؤوا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وقالوا له: «يا أمير المؤمنين، إنّنا قد شككنا في هذا القتال»، أي إنّنا قد شككنا وتحيّرنا بشأن هذه المعركة، فأرسلنا إلى الثغور والحدود حتّى لا نكون طرفاً في هذا القتال! أحياناً يكون الصمت، والانسحاب، وعدم التحدّث، بحدّ ذاته مساعدةً للفتنة. وفي زمن الفتنة، ينبغي للجميع أن يقوموا بالتوعية وكشف الحقائق؛ وينبغي للجميع أن يمتلكوا البصيرة والوعي»¹.

وأما مالك الأشتر: فميزته الاستقامة؛ والاستقامة في مدرسة القرآن الكريم لا تُحتزل في مجرّد الثبات الشكليّ، بل هي الانضباط التامّ والمطلق في مسار الحقّ ومتابعة الولي؛ إذ قد يتوهّم البعض أنّ الاستقامة هي الجمود على الرأي والإصرار على الموقف، وصاحب هذا الفهم المذموم لو وُضع موضع مالك الأشتر حين طُلب منه الرجوع وهو على قرب خطوات من خيمة معاوية لامتنع بدعوى الثبات والمضيّ في المعركة، بيد أنّ الاستقامة الحقّة التي جسدها مالك إنّما تمثّلت في التسليم والانقياد المطلق لأمر الولي، بحيث لا يُقدّم اجتهاداً شخصياً ولا حماساً ذاتياً على حكم القيادة وأمرها. فالثبات هنا يعني الثبات على خطّ الإمام عليّ (عليه السلام)، وعلى خطّ الولاية والانضباط التامّ، واستقامة مالك الأشتر تعني الانضباط الكامل.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «الناشط الاجتماعيّ المخلص والتعبويّ له نماذج في التاريخ، ومن أبرز هذه النماذج اثنان من خواصّ أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) وهما: «عمّار بن ياسر» و«مالك الأشتر». ومن هنا يجب على كلّ فردٍ منّا أن يتحلّى بـ:

بصيرة عمّار: وهي تعني عدم السماح لـ«المصاحف المرفوعة على الرماح» أو «شعارات العدوّ الخادعة» بالتأثير على النفوس وإثارة الشكّ في قلوب أهل الحقّ. فقد أدرك عمّار ببصيرته التي استمدّها من مولاه أمير المؤمنين (عليه السلام) خداع العدوّ، وسعى بكلّ طاقته إلى التبيين. وعليه، فإنّ تكليف الفرد التعبويّ في غبار الفتن هو معرفة مخطّطات العدوّ وكشفها بعلم وبصيرة وعلى أساس مواقف القيادة.

استقامة مالك: وهي تعني «الانضباط الكامل وطاعة الولي» حتّى لو كان على بعد خطوة واحدة من خيمة معاوية. وعليه يجب على الفرد التعبويّ أن يقدّم أمر وليّه على كلّ شيء، لا أن يقدّم تحليله الشخصيّ أو تحليل الآخرين على تدبير القائد»².

وللإمام الخامنيّ (قدّس سرّه) كتاب قيّم يحمل عنوان «البصيرة والاستقامة»، يجدر بكلّ فاعلٍ وتعبويّ أن يطالعه ويعمل به.

¹ من كلمة له (قدّس سرّه) بتاريخ 2009/09/24.

² اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 47 و48.

3. أن يكون «مبينًا مخلصًا وعطوفًا»

فالتعبويّ عطوف ورحيم، حتّى في مقام بيانه وتبيينه؛ فصحيح أنّك بوصفك تعبويًا ينبغي أن تكون جادًا في بيان الحقّ، غير أنّك ستواجه أفرادًا متردّدين من أبناء مجتمعك، وترى أناسًا تعترّيهم التساؤلات من داخل بيتك؛ فإيّاك أن تتعامل معهم بتكبرٍ في التبيين أو بغلظةٍ وشدة، بل عليك الإصغاء إلى تلك التساؤلات والهواجس بروح المحبة والعطف، ولا ينبغي للمرء أن يمتنّ على الناس بإجابته عن إشكالاتهم بدعوى افتقارهم إلى البصيرة.

يقول الإمام الخميني (قدّس سرّه): «عندما نستطيع بلسان لئّن ومن خلال القول السليم الخالي من الطعن وغير المغرض أن نصلح الناس ونزيد أصدقاءنا، وكلّ هذا من أجل الله، فما الداعي لأن يكتب الإنسان بقلمه ضدّ نفسه؟! [...] ما هي حجّة إنسان يمكنه أن يهدي إنسانًا آخر إلى الخير بلسان لئّن وقلم لئّن من خلال النصيحة والمصادقة كما كان يفعل الأنبياء؟!»¹.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «على الرغم من كلّ الجدّة التي ينبغي أن يتحلّى بها الفرد التعبويّ في هذا الطريق، إلّا أنّه في الوقت ذاته يتعامل بلطف ورحمة مع أهل الإيمان. فالتوضيح والتبيين للأصدقاء المتردّدين أو أصحاب الأسئلة لا ينبغي أن يكون بشدّة أو تكبر. بل إنّ الناشط الحقيقيّ ينبغي أن يصغي إلى تساؤلات وهواجس الآخرين بمحبّة وعطف، وأن يوضح ويرشد بلغة هادئة ومخلصة»².

وكذلك من الأمور الضروريّة في عمليّة التبيين هو اجتناب المبالغة وعدم إنكار الحقائق وتجنّب نشر الشائعات. من هنا يقول الإمام الخامني (قدّس سرّه): «يجب ألاّ نبالغ في كلامنا ونتحدّث خلاف الواقع. علينا أن نبيّن ما هو موجود بنحو صحيح وجميل وبأسلوب حسن. هذا ما يجذب القلوب ويؤثّر في الناس»³.

ويقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «وبصفتنا ناشطين، فإنّنا لا ننكر الحقائق المؤلمة أبدًا - مثل انعدام لأمن والضغوط الاقتصادية وغيرها -، ولكننا نصهرها في بوتقة «الوعد الحتميّ بالنصر»، ونذكر الناس بهذه السنّة الإلهيّة التي تقول: إنّ قوّة العدو أمام الإرادة الإلهيّة تساوي صفرًا، وهذه الصعوبات هي مقدّمة للوصول إلى قمّة الكمال والراحة»⁴.

ولالإمام الخامني (قدّس سرّه) إرشادات أخلاقيّة في التبيين ذُكرت في كتابه القيم «جهاد التبيين»، وعلى رأسها:

- اجتناب اللغة المسيئة.

- اعتماد اللغة العلميّة المحكمة.

- اجتناب الاتّهام.

- اجتناب السبّ.

¹ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 14، الصفحة 21.

² اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 48.

³ الخامني، علي، جهاد التبيين، الصفحة 129.

⁴ اليزدي، محمد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 49.

وغيرها الكثير من الأمور التي عدّها (قدّس سرّه) من مستلزمات جهاد التبيين¹.

4. أن يكون «رائدًا في المواساة»

فالتعبويّ المخلص لا ينقطع عن الناس معتزلاً في داره حتّى لو كانت مهيتاً له، ولا يكتفي بمجرد القول إذا كان قادراً على الفعل. وإيّاك أن تتخيّر طبّيات الأطعمة والأشربة في حين يبيت مَنْ هم بجوارك محرومين من القوات والماء.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «إنّ النشاط الاجتماعيّ في الإسلام قائم على أصلين: العدل والإحسان. العدل يعني مراعاة الحقوق المتبادلة، ولكنّ الإسلام لا يكتفي بذلك، فالناشط التعبويّ ينبغي أن يكون أيضاً من أهل الإحسان - وهو الخدمة فوق مستوى الواجب -، بل الإيثار - وهو تقديم الآخرين على النفس -.

هنا تظهر قيمة المواساة، والتي تعني أن يعدّ الإنسان أخاه المؤمن «شريكاً في ماله». فإذا كان لديك لباسان، فواحد لك وواحد له، وإذا كان لديك درهمان، فواحد لك وواحد له. والفرد التعبويّ الحقيقيّ يؤثّر حتّى في زمن الضيق: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾²»³.

وهذه المواساة لا تنبع من مجرد العاطفة الإنسانيّة المجرّدة، بل هي امتثالٌ لتكليفٍ إلهيّ بوصفك جنديّاً في هذا المسار. وحين كان الشيخ اليزدي (قدّس سرّه) يرى الشباب أيّام الحرب المفروضة يقفون في طوابير المحروقات والوقود، كان يؤكّد أنّ هذا التصرف ليس نافلاً خُلقيّاً عابرة، بل هو للتعبويّ تكليفٌ من صميم أوامر الجندیّة؛ ومن ثمّ لا يصحّ عدّ المواساة أمراً مستحبّاً فحسب، بل إنّ صدق الجندیّة متوقّفٌ على خوض هذا الميدان، وهو جهاد المواساة، وتلك ركيزةٌ أساسيّةٌ يتعيّن الالتفات إليها.

يقول الشيخ اليزدي (قدّس سرّه): «وإنّ مساعدة الضعفاء ليست مجرد نتيجة للعاطفة والمشاعر، بل هي امتثال لأمر الله تعالى. وهذه النظرة هي التي تحوّل مساعدة الآخرين من مجرد «عمل أخلاقيّ» إلى «عبادة تُقَرَّب إلى الله».

ولا ينبغي للفرد التعبويّ أن يفكر في مصالحه الشخصيّة فقط. فكما كان الشباب في طوابير المحروقات في بدايات الثورة يتنازلون عن دورهم للعجائز، فإنّ خدمة الآخرين اليوم أيضاً يجب أن تحظى بالاهتمام. فإذا لم يكن الإنسان أسير الشهرة والمقام والتعلّقات الماديّة، فإنّه يؤدّي واجبه بخفّة عند لحظة الخطر، وكلّما قويت روح الإيثار والعدالة، ازدادت مقاومة الظلم»⁴.

ويقول الإمام الخميني (قدّس سرّه) في وصيّته لابنه: «ولدي، نحن نعجز عن شكره على نعمه اللامتناهية، فمن

¹ انظر: الخامنّي، علي، جهاد التبيين، الفصل الثاني.

² سورة الحشر، الآية 9.

³ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 49 و50.

⁴ اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 50.

الأفضل ألا نغفل عن خدمة عباده، فإنّ خدمتهم خدمة له لأنّهم جميعاً منه. لا تمّن على خلق الله أبداً إزاء تقديمك خدمة لهم، فإنّهم أصحاب الفضل علينا حقّاً والواسطة لتقديم الخدمة له جلّ وعلا. ولا تستغلّ تقديم الخدمة لهم في نيل السمعة والشعبية، فإنّ هذه من دسائس الشيطان الذي يمكر للإيقاع بنا. واختر ما ينفع عباد الله لا ما ينفعك وأصدقائك، فإنّ هذه علامة الصدق والإخلاص له جلّ وعلا»¹.

ويقول الشهيد مطهري (قدّس سرّه): «الإسلام دين المواسة والمساواة، فالإسلام، بالإضافة إلى أنّه وضع الحقوق على أساس المساواة، يأمر أيضاً بالمواسة والإيثار وتقديم الآخرين على النفس. يقول الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»². فيصف القرآن الكريم جماعة من المسلمين الذين، رغم ما كانوا يعانونه من الشدّة والفقر وضيق الحال، قدّموا إخوانهم في الإيمان على أنفسهم. ثمّ يقول تعالى: إنّ كلّ من وقّى خطر شحّ النفس وبخلها، فأولئك هم المفلحون»³.

الخلاصة

الناشط التعبويّ يشبه عمّاراً في البصيرة والتبيين، ويشبه مالكا في الاستقامة وطاعة الولي. وهو ثابت أمام الصعوبات، ويعمل على تخفيف معاناة الآخرين من خلال العطاء والمواسة دون منّ. والمواسة تعني أن نعدّ آلام المجتمع الإيمانيّ آلاماً لنا. ونتيجة روح العطاء والمواسة وخدمة الآخرين هي زوال الأزمات المعيشيّة والنفسيّة من جبهة الحقّ.

¹ الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، الجزء 20، الصفحة 131.

² سورة الحشر، الآية 9.

³ مطهري، مرتضى، خطابه هاى اخلاقي، الجزء 2، الصفحة 104.

السؤال الثامن: ما الكتب التي ينبغي مطالعتها هذه الأيام؟

شرح السؤال:

في وسط الأزمات، حيث يكون الوقت محدودًا والتركيز ضعيفًا، ما هي آثار العلامة الشيخ مصباح اليزدي (قدس سرّه) أو غيرها من النصوص المعرفية التي يمكن أن تمثل «خريطة عمليّات ثقافية»؟ وما هو البرنامج الدراسي الذي يمكن أن نتبعه لكي نحصل في أقصر وقت على أكبر قدر من المدخلات الفكرية الكفيلة بفتح كافة الطرق المسدودة؟

الجواب:

أهمّ الكتب التي ينبغي علينا قراءتها في هذه الظروف التي نمرّ بها هي:

1. القرآن الكريم

وكان الشيخ اليزدي (قدس سرّه) يوصي بالآلا يُقرأ القرآن على أساس «التلاوة المجردة عن الواقع»، بل بصورة «شاملة ومرتبطة بالميدان»، والآلا نمرّ على عباراته دون تدبّر وتأمل¹.

2. وصيّة الإمام الخميني وخطابات الإمام الخامنّي (قدس سرّهما)

إنّ وصيّة الإمام الخميني (قدس سرّه) ليست مجرد وصيّة، بل هي «ميثاق بقاء جبهة الحق». وبالنسبة للناشط الثقافي، فإنّ قراءة الفقرات المتعلقة بـ«معرفة العدو» و«الوحدة» من هذه الوصيّة تُعدّ مهمّة جدًا. وكذلك كان الشيخ اليزدي (قدس سرّه) يعدّ نفسه «جندياً في ميدان التبيين يتّبع كلمات وبيانات وخطابات القائد الشهيد الإمام الخامنّي (قدس سرّه)»، وقد كانت كثير من محاضراته تدور حول شرح وبيان كلمات وتوجيهات القائد الشهيد. واليوم أيضاً ينبغي أن يستمرّ هذا النهج في التعامل مع كلمات القائد الجديد للثورة الإسلامية (دام ظلّه)².

3. كتب العقائد - الأخلاق - البصيرة

وقد كان الشيخ اليزدي (قدس سرّه) يؤكّد على إقامة «مجموعات صغيرة للمطالعة والمباحثة المنتظمة» للنجاة من فتن آخر الزمان³. فينبغي على كلّ مجموعة من المؤمنين أن يحدّدوا موعداً أسبوعياً، ويقوموا في كلّ أسبوع بالمطالعة والمباحثة، وذلك في ثلاثة مجالات:

أولاً: المطالب العقائدية.

¹ انظر: اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 55.

² انظر: اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 53.

³ انظر: اليزدي، محمّد تقي، إدارة النفس في زمن الحرب، الصفحة 53.

وهنا يُنصَح بكتب عديدة على رأسها «مشروع الفكر الإسلامي في القرآن الكريم» للإمام الخامنئي (قدّس سرّه).
ثانيًا: المطالب الأخلاقية.

وهنا يُنصَح بكتب عديدة على رأسها «الأربعون حديثًا» للإمام الخميني (قدّس سرّه).
ثالثًا: المطالب التي تبعث البصيرة.

مثل: مطالعة كتب التاريخ الإسلامي والسيرة السياسيّة للمعصومين (عليهم السلام)، ككتاب «إنسان بعمر 250 سنة» للإمام الخامنئي (قدّس سرّه) وكتاب «بارقة من سماء كربلاء» للشيخ اليزدي (قدّس سرّه). وكذلك التاريخ المعاصر وتاريخ الثورة الإسلاميّة والكتب التي تُعرِّفنا بمبادئ وأصول هذه الحركة الإلهيّة، ككتاب «الثورة الإسلاميّة» للشيخ اليزدي (قدّس سرّه).

وكذلك الكتب المرتبطة بفلسفة البلاءات والحروب وما شابهها، ككتاب «الشدائد والصعاب» للشهيد مطهري (قدّس سرّه)، وكتاب «ما وراء الشرّ» للشيخ اليزدي (قدّس سرّه)، وكتاب «الحرب والجهاد في القرآن الكريم» للشيخ اليزدي (قدّس سرّه).

وكذلك الكتب التي تبعث على اكتساب البصيرة والاستقامة والصبر وما شابه ذلك، ككتاب «البصيرة والاستقامة» للإمام الخامنئي (قدّس سرّه)، وكتابي «جلاء البصيرة» و «العين النضّاجة» للشيخ اليزدي (قدّس سرّه)، وكتاب «بحث حول الصبر» للإمام الخامنئي (قدّس سرّه).

قائمة المصادر:

المصادر العربية:

1. القرآن الكريم
2. نهج البلاغة
3. الخامنئي، علي، إنسان بعمر 240 سنة، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الثانية، 2015 م، بيروت.
4. الخامنئي، علي، بحث حول الصبر، مؤسسة الثورة الإسلامية للثقافة والأبحاث، الطبعة الأولى، 2024 م، طهران.
5. الخامنئي، علي، تفسير سورة براءة، دار المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الأولى، 2020 م، بيروت.
6. الخامنئي، علي، التقوى مفتاح البصيرة، دار المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الأولى، 2019 م، بيروت.
7. الخامنئي، علي، جهاد التبیین، مؤسسة الثورة الإسلامية للثقافة والأبحاث، الطبعة الأولى، 2022 م، طهران.
8. الخامنئي، علي، الشهادة تجارة الأذكىاء، مؤسسة الثورة الإسلامية للثقافة والأبحاث، الطبعة الأولى، 2021 م، طهران.
9. الخامنئي، علي، مشروع الفكر الإسلامي في القرآن الكريم، مؤسسة صهبا، الطبعة الأولى، 2017 م، طهران.
10. الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، دار زين العابدين، الطبعة الأولى، 2021 هـ ق، قم.
11. الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، الطبعة الأولى، 1429 هـ ق، طهران.
12. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، 1407 هـ ق، طهران.
13. الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي، كتابخانه امام أمير المؤمنين، 1406 هـ ق، اصفهان.
14. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية، 1403 هـ ق، بيروت.
15. مطهری، مرتضی، آثار التقوى، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الأولى، 2015 م، بيروت.
16. مطهری، مرتضی، أنسنة الحياة في الإسلام، دار الإرشاد، الطبعة الأولى، 2009 م، بيروت.
17. مطهری، مرتضی، الثورة والدولة، دار الإرشاد، الطبعة الأولى، 2009 م، بيروت.
18. مطهری، مرتضی، الفكر الإسلامي، دار الإرشاد، الطبعة الأولى، 2009 م، بيروت.
19. مطهری، مرتضی، المدد الغيبي، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الثالثة، 2011 م، بيروت.
20. المقرم، عبد الرزاق، مقتل الحسين، مؤسسة الخرسان للمطبوعات، الطبعة الأولى، 2007 م، بيروت.
21. اليزدي، محمد تقی، إدارة النفس في زمن الحرب، دار خزائن، الطبعة الأولى، 2026 م، بيروت.

المصادر الفارسية:

1. مطهری، مرتضی، آشنایی با قرآن، انتشارات صدرا، چاپ بیست و سوم، 1389 هـ ش، تهران.
2. مطهری، مرتضی، انسان شناسی قرآن، انتشارات صدرا، چاپ اول، 1392 هـ ش، تهران.
3. مطهری، مرتضی، خطاب های اخلاقی، انتشارات صدرا، چاپ اول، 1402 هـ ش، تهران.

مركز المعارف للتأليف والتحقيق

من مؤسسات جمعية المعارف
الإسلامية الثقافية، متخصص بتأليف
الكتب والإصدارات الثقافية، وفق
المنهجية العلمية والرؤية الإسلامية
الأصيلة.



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

لبنان - بيروت - العمورة - الشارع العام

تلفون: +961 1 471070 فاكس: +961 1 476142

www.almaaref.org.lb

Email: info@almaaref.org.lb